الجزء الأول

التـــاريـــخ

الفصل الأول

من كينيبونكپورت إلى كروفورد

قال السير لويس نامير مؤرخ السياسة الإنجليزية الكبير فى عهد الملك چورج الثالث: «إن التاريخ الإنجليزى لا سيما البرلمانى من صنع عائلات لا أفراد».[1] وهذا ينطبق على التاريخ السياسى الأمريكى لا سيما فى عهد چورج الأول وچورج الثانى. وليس هناك مقدمة للتحول الجذرى الذى طرأ على النزعة الجمهورية فى الجيل الماضى ـ من الأرستقراطى إلى الشعبى ومن الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ـ أفضل من التحول الجذرى الذى طرأ على الأسرة التى تتزعم النزعة الجمهورية حاليًا، أى آل بوش.

الجد پريسكوت

بدأ آل بوش العمل بالسياسة كجمهوريين تقليديين، أى بيض أمريكيين پروتستانت، يقضون الصيف فى كينيبونكپورت ويعلمون أولادهم فى مدارس داخلية ويدعون الانتساب للعائلة الملكية البريطانية (الملكة إليزابيث الثانية هى ابنة عم بوش الأول الثالثة عشرة). وكان جد جد بوش لأبيه، أى صمويل بوش موظف بالسكك الحديدية وأصبح أول رئيس للاتحاد القومى للمنتجين وأحد الأعضاء المؤسسين للغرفة التجارية بالولايات المتحدة.[2] وكان جده الأكبر لأمه وهو چورج هربرت واكر أرفع مكانة أيضًا. وكان من مؤسسى دبليو. إيه. هاريمان، أقدم مصرف استثمارى خاص

فى وول ستريت. وتتلخص مكانة واكر فى عنوانيه بحى مانهاتن: فعنوان مكتبه ١ شارع وول ستريت وعنوان بيته ١ شارع ساتن پلايس.[٣] ولا شك أنه كان هناك قدر من الصدأ يختبئ وراء هذه الواجهة اللامعة، فكان لكل من واكر وبوش نصيب من ألاعيب وول ستريت والصفقات الحكومية المريحة، لكن هذه الأشياء كانت مقبولة فى عصر روكفلر وڤاندربلت ومورجان.[٤]

كان أول عضو فى الأسرة يتولى منصبًا سياسيًا رفيعًا هو جد چورچ الحالى، وهو پرسكوت بوش. كان پريسكوت صورة واقعية للأرستقراطى: فكان فارع القامة ورياضيًا موهوبًا وشديد التمسك بالسلوك القويم. كان من نوعية الرجال التى تتوقع أن تجدها فى دهاليز مجلس الشيوخ المرمرية. برع فى ألعاب الجولف والتنس والبيسبول بجامعة ييل، وكان يغنى مع رباعى «أول تايم ويفنپوف»، وانضم إلى أكثر الجمعيات السرية خصوصية بالكلية، وهى جمعية «الجمجمة والعظام Skull and Bones» وتزوج دوروثى ابنة واكر فى سنة ١٩٢١م، وبعد ذلك بخمس سنوات دخل شريكًا فى. دبليو. إيه هاريمان، التى اندمجت فى العقد التالى لتصبح جزءًا من شركة «براون براذرس هاريمان».

انضم پريسكوت بالأسرة إلى الجناح التقدمى من الحزب الجمهورى الأمريكى المعروف بليبراليته فى السياسة الداخلية ونزعته الدولية فى الشئون الخارجية. بل إنه أرسل ابنه چورچ إلى آندوڤر بدلاً من المدرسة التى تخرج فيها هو ـ سان چورچ ـ لأنه اعتبرها أحدث. وكلفته ليبراليته فرصة الفوز بمقعد بمجلس الشيوخ فى سنة ١٩٥٠م. ففى أثناء حملته الانتخابية، وصفه أحد مقدمى البرامج الإذاعية بأنه «رئيس رابطة تحديد النسل».[٥] وكان هذا اتهامًا له أثره فى كونيكتيكت التى كانت حينذاك واحدة من ولايتين فى البلاد حظرتا بيع الواقى الذكرى. كما أنه كان ينطوى على قدر من الحقيقة، إذ كان پريسكوت عضوًا فى جمعية «أبوة منظمة» ومن أصدقاء إيستل جريزوالد، وهى امرأة كان تحديها القانونى للحظر التى فرضته الولاية على منع الحمل سببًا أدى بالمحكمة العليا لإقرار حق خصوصية العلاقات الجنسية فى القضية المعروفة باسم «جريزوالد ضد كونيكتيكت» (١٩٦٥م) وبذلك وضعت الأساس لقضية «روى ضد ويد». وانتشرت المنشورات المعادية لبوش على كل مقعد بكل كنيسة كاثوليكية بالولاية ومنى بهزيمة نكراء فى الانتخابات.

وفى النهاية نجح بريسكوت فى الفوز بمقعد فى مجلس الشيوخ فى انتخابات خاصة جرت فى سنة ١٩٥٢م بسبب وفاة عضو مجلس الشيوخ المنتخب، وأوفى بالتزامه بالتوجه الجمهورى المعتدل لدورتين. وشارك فى صياغة مشروع القانون الذى أنشأ «فرق حفظ السلام» ودعم الحقوق المدنية بكل قوة، ورفع الحد الأدنى للأجور، وزاد من حصص الهجرة. وصدرت إحدى الصحف التى كانت فى عهد عضويته بمجلس الشيوخ بعنوان نصه «بوش يقول إن العبء الضريبى قد يزيد». وناشد بريسكوت زملاءه بمجلس الشيوخ أن «يتحلوا بالشجاعة اللازمة لرفع الدخل المطلوب بالموافقة على أى مستوى من الضرائب تحتمه الضرورة» للوفاء بالأموال التى تحتاجها الدولة للدفاع والعلم والتعليم.[٦] وبعد فترة وجيزة، اضطر بريسكوت للتقاعد على أثر تدهور صحته فى سنة ١٩٦٢م، ونال درجة فخرية فى القانون من جامعة ييل التى تخرج فيها مع الرئيس الشاب كنيدى. وجاء فى كلمة الثناء المرفقة بالدرجة عبارة «أنت أسديت لبلادك خدمات جليلة وجسدتَ أفضل ما فى كلا الحزبين».[٧] وكان بريسكوت يستقبح كلمة «الحزبية».

وكان يلعب الجولف مع أيزنهاور. وكان يؤمن بالمثل القائل «الأدب يصنع الرجال». وذات مرة انفرد بجوزيف مكارثى وأخذ يحاضره لأكثر من ساعة عن تصرفاته غير اللائقة.[٨] وكان عداؤه لليمين المتطرف يقوم على أساس جمالى وفكرى فى آن واحد. فحين جاء مكارثى إلى كونيكتيكت ليلقى كلمة فى اجتماع للحزب الجمهورى التفت بريسكوت إلى الحشد المشاغب وقال: «لم أر من قبل مثل هذا الحشد الفظ من القردة فى أى تجمع حضرته».[٩] وفى بيته كان شديد التمسك بالتقاليد حتى أطلق عليه أصدقاؤه «رجل الوصايا العشر».[١٠]

وكان يصر أن يرتدى بنوه الأربعة وأحفاده الكثر سترات وأربطة عنق على مائدة العشاء حتى فى بيتهم الصيفى فى كينيبونكپورت، وألا يخرج أحدهم من البيت فى يوم الأحد. وكان الاسترخاء عنده تنشيطى ـ فإما الصيد أو الرياضة بحماس بالغ. وكانت هذه سمة ثابتة فيه، أما عداها فقابل للتغيير.

جورج هربرت واكر ينتقل إلى تكساس

كان بوسع ابن بريسكوت ـ جورج هربرت واكر بوش ـ أن يتبع خطى أبيه إلى

عالم التميز على الساحل الشرقى. إذ تلقى تعليمه فى آندوفر، ويل؛ حيث تفوق حتى على أبيه وأثبت أن له شخصية قوية وأنه رياضى وقيادى. وتزوج باربرا پيرس، وبعد تخرجه تلقى عروضًا عديدة للعمل فى وول ستريت. فكان بوسعه أن يضمن حياة حافلة بنوعية مآدب غذاء بقاعة الشركاء بشركة «براون براذرس هاريمان» ببسطها القانية الداكنة وجدرانها المكسوة بالخشب الداكن.

إلا أن چورچ هربرت واكر الشاب كان معدنه أصلب من ذلك. فانضم للبحرية بعد المدرسة مباشرةً وأصابه اليابانيون بطلق نارى فى سنة ١٩٤٤م وأنقذته غواصة أمريكية، مما جعله أصغر بطل حرب. وكان يريد أن يعمل فى الحقل الأمريكى الجديد. فركب سيارته فى اليوم التالى لتخرجه من ييل واتجه إلى أوديسا بغرب تكساس ليبدأ عمله فى شركة «دريسر إندستريز» التى كانت تورد الآلات لصناعة النفط الناهضة بالولاية.[١١]

لم يكن بوش بذلك يدير ظهره لعائلته القوية، إذ كان پريسكوت بوش عضو مجلس إدارة بالشركة المذكورة وحث ابنه على قبول العمل بها. بل إنه أهدى لابنه سيارته الجديدة. وكانت أوديسا بلدة معزولة ليس بها سوى حفارات نفط متناثرة ومخازن مسقوفة بالصفيح وسط صحراء غرب تكساس الشاسعة. وفى نيوهيڤن الفاتنة كان چورچ يسكن البيت المجاور لرئيس جامعة ييل. وفى أوديسا سكن هو وباربرا بيتًا مجاورًا لبيت تسكنه عاهرتان (أم وابنتها فقط).[١٢] ولكن على الرغم من قبح المدينة فإنها كانت تشهد نهضة. ففى أوديسا وميدلاند كان هناك أكبر تركيز للنفط تم اكتشافه على أرض الولايات المتحدة القارية. وكان المغامرون والأجلاف الذين كانوا يتوافدون عليهما كل يوم مستعدين لتحمل أية ظروف - من أعاصير وعواصف رملية وبعد عن المدنية وضجر لا ينتهى وعيش فى خيام وعشش دجاج - فى سبيل الثراء.

وسرعان ما انتقل آل بوش من أوديسا إلى ميدلاند، وهى بلدة موظفين على بعد عشرين ميلاً من الطريق السريع. ولم يكونوا الأسرة الأرستقراطية الوحيدة الساعية للثراء فى ميدلاند. وسرعان ما عجت البلدة بنوادى الصفوة وحفلات الكوكتيل الأنيقة، وأصبح آل بوش بنشاطهم الدءوب دعامة الحياة فى البلدة. ولكن مع ذلك كانت ميدلاند لا تزال بلدة للرواد المستثمرين. وزاد سكانها ثلاث أمثال فى الخمسينيات. وكان خريجو جامعة ييل والأجلاف يحفرون الصحراء فيها جنبًا إلى جنب بحثًا عن الرزق. ويتذكر چورچ بوش الابن حياته الريفية البسيطة وهو يلعب فى

الطرقات غير المعبدة. وحين غادر آل بوش متجهين إلى هيوستون فى سنة ١٩٥٩م، كان چورچ بوش الأب جمع ثروته واستعد للتحول إلى مجال السياسة.

كانت الجمهورية أقلية فى تكساس، فكانت أحد معاقل الديمقراطيين منذ الحرب الأهلية، وكانت ولاية ليندون چونسون وسام ريبورن بينما كان الجمهوريون فيها من قراصنة اليانكى (الشمال). ورد على لسان ريبورن الذى تولى فيما بعد رئاسة مجلس النواب الأمريكى عبارة قال فيها: «لن أدلى بصوتى لمرشحى حزب أرسل الأوباش والحشالة إلى الجنوب المغلوب على أمره بالمدى والسيوف لتسوية حضارة البيض بالأرض».[١٣] وفى مطلع القرن، كتب أو. هنرى، وهو صحفى من تكساس يقول: «ليس لدينا سوى قانونين أو ثلاثة، كالشهادة على القتل والقبض على المتلبس بسرقة حصان والتصويت لصالح الجمهوريين». وظلت السياسة فى تكساس مركزة على الانتخابات التمهيدية للديمقراطيين حتى أواخر الخمسينيات.

ولكن إذا كانت تكساس ولاية ديمقراطية، فإنها كانت ولاية شديدة المحافظة أيضًا. فكانت تعج بآثار الكونفدراليين(*) كتمثال چيفرسون ديڤيز الضخم على أرض جامعة أوستن فى تكساس، وصرح آخر خارج مبنى برلمان الولاية شيد تكريمًا «لمن ماتوا فى سبيل حقوق الولايات فى ظل الدستور». ويقول الكاتب مايكل ليند عن تكساس ـ مسقط رأسه ـ بأنها مجتمع السادة، أو ديمقراطية العرق الأعلى «تتحكم الأغلبية العرقية فيها فى الحكم، وتستغله فى قمع الأقليات العرقية والعنصرية والدينية».[١٤] وفى فترة إعادة الإعمار القصيرة التى أعقبت الحرب الأهلية، تولى بعض السود مناصب بالمجلس التشريعى، بل تولى أحدهم رئاسة المجلس جمهورى. وما إن جلت القوات الاتحادية فى سنة ١٨٧٦م حتى «استعاد» الديمقراطيون البيض الولاية، وأقروا دستورًا معتدلاً (لا يجتمع المجلس التشريعى إلامرة كل سنتين) وقمعوا السود. وكانت واكو مفرخة لجماعة «كو كلوكس كلان» العنصرية البيضاء فى أوائل القرن العشرين.

وكانت هناك أشياء أخرى تذكر چورچ بوش الأب بأنه لم يعد فى كونيكتيكت. وكان أهالى تكساس يرتابون فى مصارف أهالى ولايات الشمال وشركاتهم. يقول المؤرخ تى. آر. فيرنباك: «كانت غالبية أهالى تكساس يغبطون عائلة تمتلك عشرات

(*) الذين أرادوا الانفصال عن الولايات المتحدة فى منتصف القرن التاسع عشر، على أن تُختصر علاقة ولاياتهم بها لتصبح على المستوى الكونفيدرالى، مما أشعل الحرب الأهلية.

الآلاف من الأفدنة أكثر من غبطتهم رجلاً أنجب جرّاحين نابهين أو موسيقى بارع أو نظرية جديدة عن النسبية». [١٥] وبحلول عام ١٩٥٠م، كان ملاك الأراضى يحققون أرباحًا تصل إلى خمسمائة مليون دولار سنويًا من عوائد النفط. وكانت غالبية الطبقة الحاكمة فى تكساس لها عقلية أصحاب الضيع، فالموارد بما فيها حقوق التنقيب عن النفط وجدت لتستخرج، والعمالة المهاجرة وجدت لتُستغل، والسلطة وجدت ليُحتفظ بها، وليس المال شيئًا مخجلاً، والليبرالية لا بد من سحقها.

ومن هذا المنظور كان توقيت جورج بوش الأب صائبًا. صحيح أن أولى غزواته الكبرى فى عالم السياسة خسر فيها مقعدًا بمجلس الشيوخ دار حوله تنافس شديد مع رالف ياربورو فى سنة ١٩٦٤م، إلا أنه واصل طريقه ليفوز بمقعد بمجلس النواب فى سنة ١٩٦٦م؛ كما تزامن التوقيت الذى اختاره مع بدايات حدوث تغير جذرى فى السياسة فى تكساس ـ ثورة بدأت حين كان كنيدى بالبيت الأبيض ولم تنته إلا فى سنة ٢٠٠٣م بسيطرة الجمهوريين على مجلس الولاية التشريعى. وظهر أول بصيص من نور فى سنة ١٩٦١م؛ حيث نشب نزاع بين الليبراليين الديمقراطيين والمحافظين حول مقعد ليندون چونسون الشاغر بمجلس الشيوخ، مما سمح لچون تاور أن يصبح أول نائب جمهورى فى الولاية منذ حركة إعادة الإعمار. ومع أن أهل تكساس صوتوا بكل ولاء لصالح چونسون فى سنة ١٩٦٤م، فإن دعوة بارى جولدواتر مست وترًا لدى المحافظين المحليين.

استمر هذا التحول نحو الجمهوريين لعقود لا سنوات. ففى سنة ١٩٦٤م، كان الديمقراطيون قد سيطروا على المقاعد الواحد والثلاثين جميعًا بمجلس شيوخ الولاية وعلى المائة والخمسين باستثناء واحدًا من مقاعد مجلس النواب القوى. وفى ١٩٦٨م، لم يكن للجمهوريين سوى نائبين بمجلس الشيوخ وثمانية بمجلس النواب. وكان أحد الثمانية ـ وهو شاب فى الخامسة والعشرين من عمره من ميدلاند يدعى توم كراديك ـ قد حصل على مقعده بتأييد من كلا الحزبين، أدلى لإحدى صحف ميدلاند بتصريح جرىء بأن الجمهوريين هم حزب المستقبل. [١٦] والحقيقة أن حصوله على أية سلطة فى مجلس النواب كلفه عقدًا من السنين (حصل فى النهاية على منصب رئيس لجنة). وآثر العديد من التكساسيين البيض البقاء مع الديمقراطيين المحافظين على تبديل الأحزاب.

ومع ذلك كسب كراديك الرهان تدريجيًا. وكان العرق هو العنصر المحفز فى العديد من الحالات. فلم يفز أى مرشح رئاسة ديمقراطى بأغلبية أصوات البيض فى

تكساس منذ قانون چونسون للحقوق المدنية. كما ساعد نمو الثقافة المضادة والاحتجاجات المناهضة للحرب على عزل المحافظين البيض (أسهمت تكساس بنزعتها الحربية المعهودة بعدد كبير من القوات للذهاب إلى جنوب شرق آسيا). وكانت التركيبة السكانية أيضًا ترجح كفة الحزب الجمهورى. فقد كانت قاعدة قوة الديمقراطيين متمثلة فى تكساس الزراعية القديمة وحكومتها السخية، إلا أن أصحاب الضيع الكبيرة ضيقوا على المزارعين المستأجرين حتى تناقص عددهم إلى النصف بين ١٩٣٠ و١٩٥٧م، فى حين تضاعف متوسطَ مساحة الأرض المزروعة. وفى الوقت نفسه جاءت دعوة الجمهوريين بخفض حجم الحكومة وخفض الضرائب ودعم الأسرة على هوى القادمين الجدد بالضواحى الجديدة والمبانى الإدارية المشتركة (بلغ عدد الوافدين إلى هيوستن أكثر من ألف أسبوعيًا إبان ذروة الطفرة النفطية فى الخمسينيات).

وإذا كان الحزب الجمهورى غير وجه السياسة فى تكساس، فإن تكساس غيرت الحزب الجمهورى أيضًا، وغيرت عائلة بوش معها. كانت النزعة الجمهورية فى تكساس تختلف عن عقيدة نادى بريسكوت الريفى، فهى أكثر عداء للحكومة وأكثر ميلاً للنزعة الشعبية وأكثر تشبعًا بروح التدين. فكان بريسكوت يرى أن مكارثى يفتقر للأدب؛ بينما أرسلت مجموعة من المحافظين التكساسيين لمكارثى سيارة كاديلاك هدية بمناسبة زواجه. والسؤال الذى لا يزال مطروحًا بين الجمهوريين إلى يومنا هذا هو: إلى أى مدى كان چورچ بوش الأب يعتنق هذه العقيدة الجديدة الهشة؟

ذاع صيت چورچ بوش الأب بأنه «فى وسط الوسط إلى حد ما».[١٧] وكان العديد من أهالى تكساس يعتبرون أدبه الذى عرف عن أهالى الساحل الشرقى نوعًا من البلاهة وينبذونه باعتباره «جمهوريًا نظيف الأظافر» أو «من نوعية الرجال الذين يخرجون من تحت الدش ليبولوا» كما قيل لأحد زملائنا ذات مرة. وفى ١٩٦٦م وصفه ياربورو ساخرًا بأنه شمالى أرستقراطى، وسأل رجال النفط فى «إيست تكساس» عما إذا كانوا مستعدين لانتخاب «مغفل من كونيكتيكت ينقب عن النفط لشيخ من الكويت».[١٨] وفى النهاية، حين انتخب چورچ عضوًا بمجلس النواب، صنع لنفسه اسمًا باعتداله فى المسائل الثقافية. بل إن ويلبر ميلز رئيس لجنة مجلس النواب للسبل والوسائل أطلق عليه اسم «كاوتش ـ Rubbers» لحماسه الزائد لتنظيم الأسرة.[١٩]

ارتقى چورچ بوش الأب السلم الجمهورى من خلال تولى الوظائف المؤسسية التى كانت تسر أباه ـ سفير فى الأمم المتحدة، رئيس الحزب، مبعوث إلى الصين، مدير جهاز المخابرات. وفى سنة ١٩٨٠م حين تم ترشيحه للرئاسة، أدان أفكار رونالد ريجان عن سياسة «جانب الإمداد» بهدف زيادة الاستثمار باعتبارها من قبيل «اقتصاد السحر الأسود» ـ وتم منحه منصب نائب الرئيس استرضاءً لما تبقى من جناح الساحل الشرقى من الحزب. وعلى الرغم من قضائه ثمانى سنوات فى خدمة ريجان، فإن العديد من المحافظين لم يؤيدوا ترشح بوش للرئاسة فى سنة ١٩٨٨م إلا بعد أن أشار ريجان بذلك. وما إن تولى الرئاسة، حتى أثار غضب المحافظين برفعه الضرائب ـ فشأروا منه فى انتخابات ١٩٩٢م بدعم پات بوكانان فى انتخابات الجمهوريين التمهيدية، وتشجيع روس پيرو الذى كان تكساسيًا أكثر أصالة من الرئيس، فى الانتخابات العامة.

ومع ذلك كان من الواضح أنه أشد محافظة من أبيه. فترشح بوش لذلك المقعد بمجلس الشيوخ فى سنة ١٩٦٤م كنصير قوى لنزعة جولدواتر المحافظة ـ وهو ما لم يكن پريسكوت يفعله. وعارض مشروع چونسون للحقوق المدنية، ومعاهدة حظر التجارب النووية، وزيادة المعونات الأجنبية و«إنفاق الأموال على برامج مكافحة الفقر». بل إنه عارض مارتن لوثر كينج الابن بوصفه «مقاتلاً» تمول النقابات جمعيته الخاصة بالحقوق المدنية.[٢٠] وكان أسلوبه فى إدارة حملته بعيدًا أيضًا عن أسلوب كونيكتيكت. پريسكوت كان ليأتى بأعضاء من «جمعية ويفنپوف» بجامعة ييل ليغنوا له فى تجمعاته الانتخابية.[٢١] أما چورچ بوش الأب فقد تم تقديمه بالموسيقى الريفية و«الفاتنات ذوات القلانس الزرقاء» اللائى غنين: «ستشرق الشمس يومًا فى مجلس الشيوخ / چورچ بوش سيطارد هؤلاء الليبراليين ويبعدهم».[٢٢]

لم يكن ارتقاء بوش عبر المؤسسات يتناسب تمامًا مع الأسلوب الأرستقراطى الصرف الذى بدا به، فأعجب به نيكسون لأنه كان يختلف عن «أوغاد الأرستقراطية المعهودين».[٢٣] وحين ترشح بوش للرئاسة، غازل اليمين بلطف بالغ. فعين لى أتواتر البارع فى الألاعيب الشعبية القذرة مديرًا لحملته الانتخابية. كما غازل اليمين المتدين بدعوته كلاً من چيم وتامى فاى بيكر إلى منزل نائب الرئيس، وبظهوره بجامعة ليبرتى

المملوكة لچيرى فالويل(*)، وبعمل شريط ڤيديو عن تحوله إلى المسيحية الذى «غير حياته». وبعد أن انتخب رئيسًا، اتخذ من الإجهاض مواقف تعتبر وفق بعض المعايير إلى يمين مواقف ابنه. وكان چورچ بوش الأب أيضًا هو الذى أوصى ابنه البكر بمطالعة كتاب بارى جولد واتر «ضمير محافظ».

چورچ بوش الأب: شرقى الميلاد، تكساسى النشأة

لا يمكن لأحد أن ينكر أن حياة چورچ بوش الابن العملية احتفظت بقدر من تراث عائلته الأرستقراطى. بدت مراحلها الأولى كنسخة باهتة من حياة أبيه؛ إذ ذهب إلى آندوڤر؛ حيث كان من المشجعين ولم يكن من نجوم الرياضة، وتعثر فى جامعة ييل التى كان جده پريسكوت من أمناء مجلسها. وانتخب لرئاسة جمعية أخوة «دلتا كاپا إپسيلون» وجمعية «جمجمة وعظام» ولكن من الواضح أنها كانت تجربة أصعب عليه مما كانت بالنسبة لأبيه. كانت آندوڤر بالنسبة لچورچ بوش الابن «باردة وبعيدة وصعبة». وفى جامعة ييل، كانت له مطاردتان من الشرطة، مرة حين سرق أحد أكاليل عيد الميلاد من أمام حانوت محلى، والمرة الأخرى حين قام هو ومجموعة من أصدقائه بتحطيم عارضة ملعب پرنيستون عقب إحدى المباريات. (إحدى المسودات الأصلية لكلمته فى حفل التخرج بكليته تتضمن الذكريات التالية: «من دواعى سرورى أن أعود إلى نيوهيڤن. فسيارتى تبعها من المطار طابور طويل من سيارات الشرطة بأضوائها الدوارة البطيئة، فأعادتنى لأيام ما قبل التخرج من جديد». ولكنها أسقطت للأسف)(٢٤).

بالطبع يحلو للرئيس الثالث والأربعين أن يقلل من أهمية تعليمه الأرستقراطى وأن يشير إلى شوقه للعودة إلى أهالى تكساس الوطنيين الشرفاء بعيدًا عن المتعجرفين. ولكن حتى مع السماح بقدر من التشوش الذهنى، فمن الواضح أن هوة ما نشأت فى أواخر الستينيات بين مبادئ چورچ بوش الابن فى تكساس وما وَجد فى ييل. ولم يكن هذا مرجعه أن أنه كان محرضًا للغوغاء بينما كان أبوه قديسًا بالسليقة، بل لأن ييل كانت تغيرت أيضًا. فازداد الحرم الجامعى راديكالية بسبب ڤيتنام. ومن اللحظات

(*) واحد من الدعاة النجوم الإيڤانجليكيين الذين يستمع إليهم الملايين، والذين يناصرون إسرائيل ويتحرقون لمعركة هرمجدون.

المحورية فى حياة چورچ بوش الابن الجامعية لقاؤه مع ويليام سلون كوفن قس الجامعة بُعيد هزيمة أبيه أمام ياربورو. كان كوفن تم اختياره من قبل چورچ بوش الأب لعضوية «جمجمة وعظام»، بالتالى كان على بوش الشاب أن يقدم نفسه للقس. فأجابه كوفن: «أنا أعرف أبيك. بصراحة هو انهزم أمام رجل يفضله». (٢٥)

رجل يفضُله! إن أعلى رتبة فى قاموس آل بوش أن يوصف أحد الناس بأنه «رجل فاضل». وكان چورچ هربرت واكر بوش نموذج الرجل الفاضل فى عينى ابنه، رجل خاطر بحياته فى سبيل بلاده، وجمع ثروة ويجازف بكرامته بخوضه تنافسًا على منصب عام. وها هو قس جامعته التى تخرج فيها يلمح بأنه لم يكن سوى مجرد عنصرى من الجنوب. كانت هناك أشياء كثيرة تجذب چورچ بوش الابن نحو الاتجاه المحافظ فى «حزام الشمس» وكان أيضًا يُدفع نحوه.

فى بادئ الأمر، تشكك چورچ بوش الابن فى تكساس. وفى ١٩٧٨م، قرر الترشح لعضوية مجلس النواب عن غرب تكساس ـ وأنبأ أصدقاءه الذين فوجئوا باهتمامه المفاجئ بالسياسة ـ حيث كان يرى أنه فى ظل إدارة چيمى كارتر «كانت الولايات المتحدة متجهة نحو اشتراكية أوروبية الطابع». (٢٦) إلا أن خصمه الجمهورى فى الانتخابات الأولية چيم ريز كان ضامنًا لتأييد رونالد ريجان ـ وهو ناقم قليلاً على أسرة بوش ـ وأرسل خطابًا يعبر فيه عن استيائه لاستعانة بوش «بجمهوريين من عينة روكفلر من أمثال كارل روف لإدارة حملته الانتخابية». (٢٧) وتمكن چورچ بوش الابن من هزيمة ريز، إلا أنه واجه خصمًا أشرس فى الانتخابات العامة وهو ديمقراطى محلى يدعى كنت هانس. كان هانس لا يمل وصف بوش الشاب بأنه قرصان من الشمال تلقى تعليمًا فاخرًا بالساحل الشرقى ولا جذور له فى المجتمع المحلى، و أنه بتعبير أحد الأهالى المحليين «ولد بحذاء من فضة يصل إلى مؤخرته». (٢٨) ألم يكن بوش ينتمى لما يعرف بجمعية «جمجمة وعظام»؟ ألم يكن أبوه عضوًا «باللجنة الثلاثية» وهو تنظيم اتهمه الكثير من المزارعين بالعمل على خفض أسعار المحاصيل الزراعية؟

وكان مما يسر مهمة هانس أن قائمة المتبرعين لحملة بوش الانتخابية ضمت عناصر المؤسسة الجمهورية ومنهم وزير الدفاع السابق دونالد رامسفيلد. ومما يسر المهمة أيضًا قرار چورچ بوش الأرعن بعمل إعلان تليفزيونى لنفسه وهو يركض. (عن هذا الإعلان قال أحد المعلقين: «هذا الإعلان قد يصلح فى هايلاند پارك أو هيوستن، أما

أن يركض شخص فى ديميت فمعناه أن أحداً يطارده»). وكان الكاريكاتور مقنعًا لدرجة أن مدير المناظرة بين المرشحين سأل بوش فى وجهه عما إذا كان أداة لحكومة ظل. وفاز هانس بالانتخابات بسهولة.

وفى أثناء حملته الفاشلة، دأب جورج بوش على قول إنه لم يندم إلا على شىء واحد هو أنه لم يولد فى تكساس. ولكن كلما زادت معرفة أهل تكساس بجورج بوش الابن ازدادوا استعدادًا لغفران هذه الهفوة له. فالانتماء لتكساس يمكن صنعه كبديل عن الميلاد بها، فولاية «النجمة الوحيدة» ولاية مهاجرين على أية حال، وسرعان ما أدرك الناس أن جورج بوش الابن كان أكثر انتماءً لتكساس من أبيه. ففى حين كان جورج بوش الأب يذهب إلى مدرسة «جرينويش كنترى داى سكول» بسيارة يقودها سائق ويرتدى زيًا يتألف من سترة وسروال فضفاض مزموم عند الركبة، كان جورج بوش الابن يمشى على رجليه أو يركب دراجة إلى مدرسة يتم بها تدريس تاريخ تكساس فى الفرقة الرابعة قبل تدريس التاريخ الأمريكى فى الفرقة الخامسة.[٢٩] ولم يكن يجد غضاضة فى النزعة الشعبية المعادية للحكومة بالولاية. كما أنه قايض انتماءعائلته للأسقفية البروتستانتية بالكنيسة الميثودية. وازدادت استعانة الأب بابنه البكر موفدًا إلى حركة المحافظين.

ومن المفارقات أن الرجل الذى أعان جورج بوش الابن على غزو تكساس كان دخيلاً آخر من خارج الولاية، وفى هذه المرة من يوتاه، وهو كارل روف. وكان كلاهما غريبى الأطوار. فبينما شب بوش ابنًا لأب سياسى، كان روف سياسى خردة. يقول مارك مكينون، وهو سياسى من تكساس، «عندما كان الرئيس غرًا يافعًا كان يريد أن يكون مثل ويلى مايز لاعب البيسبول الشهير؛ وحين كان كارل غرًا يافعًا كان يريد أن يشب ليكون كبير مستشارى الرئيس».[٣٠] كان بوش دائمًا فى مركز الجماهير، وكان روف مثالاً للمتفوق العبيط بنظارته وحقيبته وخوفه على جيبه. إشترك روف فى حملة ريتشارد نيكسون الانتخابية وهو فى سن المراهقة، ثم انضم لكلية الجمهوريين فى وقت كانت فيه الاحتجاجات على ورطة ڤييتنام تجتاح الجامعات الأمريكية. ثم دعاه لى أتواتر ـ الذى أحس نحوه بصلة قرابة ـ إلى واشنطن ليعمل لصالح اللجنة القومية للجمهوريين، وفى سنة ١٩٧٧م أغراه جورج بوش الأب على المجىء لتكساس للعمل فى «لجنة العمل السياسى» الخاصة به. وسارع روف بأن تحول إلى أعلى المستشارين السياسيين الجمهوريين مكانة بالولاية.

وحتى بعد عشر سنوات من رهان كراديك، لم تكن تكساس بعد اختياراً محدداً لجمهورى شاب يبدأ حياته السياسية؛ ففى سنة ١٩٧٧م لم يحظ الحزب إلا بعدد ٢١ من مقاعد المجلس التشريعى البالغ عددها ١٨١، ولم يكن السباق الأول للشاب چورچ بوش فى سنة ١٩٧٨م مبشراً. لكن روف استشعر اتجاه الريح. فوضع قائمة غير عادية بالمتبرعين الجمهوريين، وعمل لحساب كافة كبار الجمهوريين بالولاية من أمثال فيل جرام الديمقراطى السابق الذى انتخب بمجلس الشيوخ كجمهورى فى سنة ١٩٨٤م، وكاى بيلى هتشسون الذى اقتنص المقعد الآخر بمجلس الشيوخ فى سنة ١٩٩٣م، وريك پيرى الذى انتخب محافظًا فى سنة ٢٠٠٠م؛ وچورچ بوش الابن بالطبع. كان هذا كله المرادف السياسى لشراء أسهم بشركة مايكروسوفت بمجرد أن طُرحت أسهمها للعامة.

كان أقسى اختبار لشعبية چورچ بوش الابن فى تكساس وبراعة روف السياسية هو انتخابات ١٩٩٤م لاختيار المحافظ. كانت آن رتيشاردز، تكساسية أصيلة، سريعة الفهم، جمعوا مآثرها التكساسية فى كتاب، وكانت تعتبر ويلى نيلسون من أقرب أصدقائها، وكذلك كانت تحظى برعاية باربرا چوردان أول زنجية تنتخب عضواً بمجلس النواب من الجنوب، لكنها كانت تصف شعرها الأبيض الفضى ملمومًا فوق رأسها على الطريقة الجمهورية. وعرفت بإدانتها اللاذعة لبوش الأب؛ حيث صرحت أمام جمهور كبير فى مؤتمر الديمقراطيين فى سنة ١٩٨٨م قائلة: «مسكين چورچ، الذنب ليس ذنبه، فقد وُلد وفى فمه قدم من فضة». وحاولت أن تفعل الفعلة نفسها فى بوش الابن؛ حيث أطلقت عليه كنى منها «شُجيرة» [كلمة «بوش» فى الإنجليزية تعنى «شجيرة»] و«الابن» و«الأمير چورچ» و «الدمية ذات الزنبرك».

ومع ذلك، نجح حفيد پريسكوت فى التفوق على ابنة جامع القمامة التكساسى. وافتتح بوش ترشيحه بترنيمة لولاية النجمة الوحيدة: «تكساس بالنسبة لىّ نمط حياة، حالة ذهنية، أسلوب تفكير . . . أنا لا أريد لتكساس أن تكون مثل كاليفورنيا». وكان دائم استحضار صورة كاليفورنيا ليوحى بأن ريتشاردز ليبرالية مسكينة و (الأسوأ من ذلك) لا صلة لها بقيم تكساس الراسخة ـ والغريب أنه نال عونًا كبيراً من حملة ريتشاردز الانتخابية التى أخذ المتبرعون الرئيسيون لها يغذون هذه الصورة، بما فى ذلك

ستيفن سبيلبرج وآنى ليبوفيتز وروبرت ردفورد وشارون ستون وفرح فوست وروزآن أرنولد وباربرا سترايسند. وكان من المتبرعين لحملة بوش روجر ستاوباك الظهير الأسطورى لفريق «دالاس كاوبويز»، ومايك ديتكا مدرب كرة القدم الأمريكية. وفى أواخر الحملة، ارتقت ريتشاردز المنصة مع روزى أودونل فى دالاس للاحتفال بالحق فى الإجهاض. وفى اليوم نفسه كان بوش يزور بعض البلدات الريفية الصغيرة منتعلاً حذاءاً من جلد الثعبان وسترة مزارعى تكساس، وبرفقته بيلى چو دوپرى اللاعب السابق لفريق «دالاس كاوبويز» والممثل الشهير تشك نوريس.

بل نجح چورچ بوش الابن فى استغلال ما سماه «سنوات الترحال» لصالحه. وسأل الصحفيين الفضوليين قائلاً: «هل كانت تصرفاتى غير مسئولة أحياناً وأنا صغير؟ نعم، بكل تأكيد». كانت من مشكلات أبيه أنه كان بالنسبة له أفضل من أن يكون حقيقة، واحد من الموهوبين دائماً. كانت جبلة چورچ بوش الابن الذى أدمن التبغ فى الثمانينيات أكثر خشونة. ففى خلال حملته الانتخابية ضد آن ريتشاردز، انتشرت شائعات عن طيشه فى فترة الشباب ـ اعتقاله للقيادة فى حالة سكر وتعاطيه المخدرات ومعاكسة الفتيات وسكره وقت حفل تسلم أبيه مهام الرئاسة . . . وباستثناء القيادة فى حالة سكر، لم يكن أى من هذه الشائعات ثابتة، إلا أنها نجحت فى تثبيت صورة چورچ بوش الابن كتكساسى أصيل. صرح روف ذات مرة للصحفيين قائلاً: «هو يفهم بوبا(*) لأن بداخله بوبا. لا شك أنه الابن الشقى».(٣١)

وفى أثناء حملته الانتخابية، صك چورچ بوش الابن علامته التجارية: «الاتجاه المحافظ الرحيم». وأيد زيادة المخصصات المالية للتعليم. وكان يرى أن المؤسسات الدينية يمكن أن تساعد فى تحسين الأوضاع الاجتماعية، وكانت تعويذته التى لا يمل ترديدها «الحكومة لا تحتكر الرحمة». كما كان لديه ما يغرى به أقصى اليمين، كحبس المذنبين من الأحداث والسماح بمحاكمتهم كبالغين فى سن الرابعة عشرة؛ وتأييد قانون ضد الشذوذ سعى زعماء الشواذ لإبطاله؛ واشتراط موافقة الوالدين للمراهقات اللائى يردن إجراء عملية إجهاض؛ وإجازة حمل السلاح للأفراد؛ وحرمان من يتلقون إعانة الضمان الاجتماعى ممن أنجبوا طفلين بالفعل من تلقى الإعانة.

(*) كلمة مداعبة فى جنوب الولايات المتحدة، مثل (صايع) بالعامية المصرية أو شىء من هذا القبيل، فهى بين الأصدقاء مقبولة، ومن الغرباء إهانة.

وكانت النتيجة الفوز. فاز بوش بنسبة ٥٣ ٪ فى مقابل ٤٦ ٪، وهو أكبر هامش خلال عشرين سنة. واصل بوش استعراض مآثره التكساسية من جديد، وفى هذه المرة ليس بهزيمة رمز تكساسى أصيل بل بإغوائه. فمعظم السلطة المؤسسية فى تكساس فى يد نائب المحافظ. وفى سنة ١٩٩٤م كان منصب نائب المحافظ من نصيب تكساسى جنوبى تصادف أن كان ديمقراطيًا. كان بوب بولوك مدمن كحوليات سابق، تزوج خمس مرات (مرتان منها بامرأة واحدة) وكان فيما مضى مشاغبًا كبيرًا. (ذات مرة وبعد ليلة من السكر، صعد فوق سقف إحدى السيارات المركونة ليغفو قليلاً، واستيقظ ليجد السيارة تتحرك. فسارع ومد يده فوق المقعد ليقدم نفسه للسائق وزأر قائلاً «أهلاً! أنا نائب محافظك!»)[٣٢]. وكانت لبولوك القوة اللازمة للقضاء على منصب بوش كمحافظ للولاية. ما الذى يدفع شخصية كهذه للتوافق مع جمهورى أرستقراطى؟ إلا أن بوش سرعان ما اجتذبه لصفه. ويقال إن بولوك فى حوار بينهما تذمر قائلاً: «لو كنتَ ستمارس الشذوذ معى فعليك أن تُقَبِّلَنى أولاً». فسارع بوش بتقبيل هذا السياسى الأرقط القديم على وجنته.

وفى تلك المرحلة كان الحزب الديمقراطى الذى حكم تكساس طوال قرن من الزمان يتقوض. فشهدت تكساس فى الفترة من ١٩٦٥ إلى ١٩٩٥م أكبر نمو عرفته البلاد فى أصوات الجمهوريين فى انتخابات مجلس النواب.[٣٣] شرع كل من بوش وروف لتقويض ما تبقى من جدران فى ذلك الصرح العظيم. حتى كنت هانس الديمقراطى الذى أحبط أول مسعى لبوش لتولى المنصب تحول إلى الحزب الجمهورى وركع أمام خصمه القديم. وفى سنة ١٩٩٨م، فاز بوش فى إعادة الانتخابات بنسبة ٦٨ ٪ من الأصوات متفوقًا على خصمه بأن حصد ١,٤ مليون صوت، وسرعان ما شعر مجلس شيوخ الولاية فى النهاية بأنه وقع فى أيدى الجمهوريين. وفى سنة ٢٠٠٢م، فاز الحزب بكل انتخابات جرت فى الولاية، وانتهى الأمر بأن استولوا على برلمان تكساس. وأصبح كراديك الجمهورى الوحيد من ميدلاند أول رئيس جمهورى للبرلمان منذ أواخر عهد إعادة الإعمار [بعد الحرب الأهلية فى منتصف القرن التاسع عشر]. وفى سنة ٢٠٠٤م، وبعد مباراة شرسة لإعادة توزيع المناطق، اقتنص الجمهوريون خمس مقاعد ديمقراطية بالبرلمان، وأصبحت لهم بها أول أغلبية فى تفويض الولاية.

وعندما عقد أحدنا لقاء مع جورج بوش الابن كمحافظ للولاية فى أواخر التسعينيات، بدا واضحًا أنه كان يختلف عن أبيه وعن جده.[٣٤] كان جالسًا خلف مكتب كبير من خشب الماهوجنى ورثه عن أبيه، ولكنه تحدث بلغة أقرب إلى العامية بادئًا جمله بعبارات من قبيل «الناس لا تحب . . .» و «قد تحسب . . . ولكن . . .».

وعلى مائدة صغيرة خلف مكتب المحافظ، كانت هناك مجموعة صور للعائلة. وكانت بينها صورة باهتة بالأبيض والأسود للجد پريسكوت بوش وهو يلوح لحشد من الناس مبتهجين بفوزه فى سنة ١٩٥٢م. أصبحت صورة پريسكوت تطل الآن على عالم يختلف كل الاختلاف عن أى شىء عرفه ـ عالم ينتعل فيه الفرد من عائلته حذاء رعاة البقر، ويعتبر بارى جولدواتر فيه مفكرًا جادًا، وتلوح فيه ولايات الجنوب أكبر من أوروبا، والتى أصبح الاتجاه المحافظ يعامل فيها كحركة راديكالية من أجل التغيير. لا شك أنه كان سيفخر بحفيده، ولكنه ربما اندهش لشدة ما طرأ على الحزب الجمهورى من تغيرات.

* * *

الفصل الثانى

مسار المحافظين
١٩٥٢-١٩٦٤م

نحاول فى الفصول الثلاثة التالية أن نجيب عن التساؤل القائل كيف تغير الحزب الجمهورى إلى هذا الحد؟ حتى أكثر المحافظين تفاؤلاً سيسلم جدلاً بأن بزوغ نجم اليمين فى السنوات الخمسين الماضية لم يكن سيراً مستقيماً نحو النور. بل كانت هناك نقاط توقف مفصلية ـ منها واترجيت وبيل كلينتون ـ وعمليات التفاف مبددة للوقت. لكن هناك ثلاث نقاط رئيسة تتخلل هذه الحكاية، هى التركيب السكانى وجنود المشاة (القاعدة العريضة) والمثقفون.

كان آل بوش جزءاً من جيش كبير من الأمريكيين يسعون للثراء فى الجنوب والغرب. وجاءت الثورة السكانية لتساعد على إعادة صوغ الأمة والحزب الجمهورى. وصار «حزام الشمس» [ولايات الجنوب] يمثل تحدياً للمؤسسة الشمالية الشرقية بعقيدة محافظة أكثر حدة، وأمد اليمين بقاعدة عريضة من صغار المنتمين. ويمكن، بشكل تقريبى تماماً، تقسيم هؤلاء النشطاء إلى مجموعتين: محافظون اجتماعيون، ومحافظون مناوئون للحكومة. وفى حين أراد المحافظون الاجتماعيون (العديد منهم من الجنوب) أن يدفعوا الساسة لأداء أعمال اللوردات (السادة)، لم يكن المحافظون المناوئون للحكومة (العديد منهم من الغرب) يريدون سوى الخلاص من واشنطن. وإذا كان الإجهاض هو الدعوة التى ركز عليها المحافظون الاجتماعيون، فإن الضرائب وحمل الأفراد السلاح كانا منطلق الفريق المناهض للحكومة. وكان مدى التغيير الذى أحدثه المثقفون على شكل الحزب لا يقل عن المدى الذى أحدثته القاعدة. ففى سنة ١٩٥٢م، كانت حركة المحافظين فكرة

ثانوية فى الحياة الأمريكية. وفى أواخر القرن أصبحت موسوعة حقيقية للفكر عن كل شىء بدءًا من النشاط القضائى وانتهاء بالدول المارقة.

عهد آيك [أيزنهاور]

فى سنة ١٩٥٢م، وهى السنة التى أتى فيها بريسكوت بوش إلى واشنطن، أصبح دوايت أيزنهاور أول جمهورى يفوز بالرئاسة بعد هربرت هوڤر فى سنة ١٩٢٨م. نجح آيك على حساب أدلاى ستيڤنسن بهامش هائل: ٥٥ ٪ إلى ٤٥ ٪، وجاء بالأغلبيات الجمهورية المساعدة فى كلا مجلسى الكونجرس (ولو أن أغلبية مجلس الشيوخ توقفت على الصوت الترجيحى لنائب الرئيس). فكان يتمتع بنفوذ شخصى لرجل قاد جيوش الحلفاء للنصر فى الحرب العالمية الثانية.

إلا أن هذا القيصر الجمهورى لم يكن حزبيًا محافظًا. فنظرًا لأن آيك أمضى حياته كلها تقريبًا يعمل بالحكومة الاتحادية، فإنه لم يكن لديه الوقت للاهتمام بالأيديولوچيا الراديكالية. وكان هذا القائد العسكرى يصف نفسه أحيانًا بأنه «جمهورى تقدمى» ولعله كان فى الوقت نفسه «ديمقراطيًا محافظًا». [١] والحقيقة أن الديمقراطيين طلبوا منه أن يكون مرشحهم قبل أن يقبل الترشيح الجمهورى فى سنة ١٩٥٢م. وفى سنة ١٩٥٦م، حين هزم ستيڤنسن مرة أخرى وبسهولة، أبرز أحد الصحافيين فكرة ترشيحه من كلا الحزبين. وكان اختيار أيزنهاور الجمهوريين يقوم على صلاته الشخصية بقدر ما كان يقوم على أى عامل آخر. وأثنى ليندون چونسون زعيم الأقلية الديمقراطية الجديد بمجلس الشيوخ على خطاب أيزنهاور عند بدء توليه رئاسة الجمهورية بأنه «تعبير جيد جدًا عن برامج الديمقراطيين فى العشرين سنة الماضية». [٢]

فى الخارج، كان آيك يؤيد احتواء الخطر الأحمر لا صده. وفى الداخل لم يسع لتقويض «الصفقة الجديدة» أو خفض العبء الضريبى، بل أعلن أن «التوسع التدريجى للحكومة الاتحادية» هو «ثمن تمدد سريع للنمو القومى». [٣] وكتب لأخيه إدجار، وهو أكثر محافظة منه، يقول «وإذا حاول أى حزب إلغاء إعانة البطالة وقوانين العمل والبرامج الزراعية، فلن نسمع عن هذا الحزب مرة أخرى فى تاريخنا السياسى». وكان عدد الجمهوريين ممن أيدوا مثل هذه الإلغاءات تأييدًا فعليًا حسب

قوله لا يذكر؛ كما أنهم كانوا «أغبياء».[٤] وكانت أولى توصياته للكونجرس أن يستحدث وزارة للصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية؛[٥] وعندما كشفت أوقيتا كالب هوبى المسئولة عن الوزارة الجديدة عن خطط خفض دعم المدارس، عنفها أيزنهاور بشدة وقال: «أنا مندهش من فكرة خفض التعليم! إنه أهم شيء فى المجتمع. كل ليبرالى ـ بما فيهم أنا شخصيًا ـ سيستهجن ذلك».[٦]

لو كانت لأيزنهاور فلسفة لكانت حسن الإدارة. فشهرته قامت على تنسيقه قوات الحلفاء فى أوروبا، وكان يعشق عالم التجارة والأعمال. وعين رئيس شركة جنرال موتورز تشارلز ويلسون وزيرًا لدفاعه (مما أدى إلى شيوع النكتة القائلة إنه استبدل أنصار «الصفقة الجديدة» بتجار السيارات ـ he replaced the New Pealers with the car dealers).[٧] ولم يجد أمثال هؤلاء داعيًا لهز المركب. فمنذ انتخاب هربرت هوفر فى سنة ١٩٢٨م، زادت القوة العاملة من ٦٣٠ ألف موظف إلى ٢,٥ مليون موظف، وزادت الموازنة الاتحادية السنوية من ٣,٩ مليار دولار إلى ٦٦,٢ مليار دولار،[٨] إلا أن مثل هذه الزيادة فى حجم الحكومة لم تزعج تجار السيارات.

كما رحب أيزنهاور فى حكومته بالمؤسسة الليبرالية نفسها التى عملت مع الديمقراطيين. فتولى هنرى كابوت لودج ـ المثقف ابن الطبقة العليا ـ إدارة حملته الانتخابية للرئاسة، وعمل فيما بعد سفيرًا للولايات المتحدة فى الأمم المتحدة. وكان وزير الخارجية جون فوستر دالاس من المؤمنين بحلف شمال الأطلنطى والمعونة الخارجية والتوجه الدولى، إيمانًا لا يتزعزع.

كان بوسع أيزنهاور أن ينهر اليمين لأنه لم يكن هناك يمين يرد على ذلك. وفى داخل الحزب الجمهورى، كان «الجمهوريون من أنصار ديوى» وهو الفريق الذى أحاط بآيك، قد تفوقوا على «الجمهوريين من أتباع تافت» بكثير. وكان الأخيرون يتزعمهم السيناتور روبرت تافت أو «السيد الجمهورى» كما كان يحب أن يُعرف، وكان ناقدًا قاسيًا لـ «الصفقة الجديدة» وحلف شمال الأطلنطى (صرح فى سنة ١٩٤٩م قائلاً «نحن تبنينا توجهًا بالتدخل فى شئون الدول الأخرى متصورين أننا الملاك الذى يستطيع أن يحل مشكلات العالم»).[٩] أما المعتدلون الذين استمدوا اسمهم من توماس ديوى محافظ نيويورك الأرستقراطى، فقبلوا «الصفقة الجديدة» فى الداخل، وأيدوا التوجه

الدولى فى الخارج. وعلى الرغم من نفوذ تافت فى مجلس النواب، فإن جمهوريى ديوى هم الذين فازوا فى كل ترشيح رئاسى جمهورى من ١٩٤٠ إلى ١٩٦٠م، وهم الذين اختير منهم محافظو كبرى ولايات البلاد، بما فى ذلك بنسلفانيا وكاليفورنيا، وهيمنوا على وسائل الإعلام الكبرى المعبرة عن الرأى الجمهورى، كمجلتى تايم و لايف، وصحيفة نيويورك هيرالد. واكتمل انتصارهم بوفاة «السيد الجمهورى» فى أولى سنوات رئاسة أيزنهاور.

وإذا لم يكن لحركة المحافظين نفوذ كبير فى مجلس النواب، فإن مكانتهم فى عالم الفكر كانت أقل. كان أمام الليبراليين ثمانى مجلات أسبوعية يختارون بينها، أما المحافظون فلم يكن أمامهم سوى واحدة Human Events وهى نشرة من ثمانى صفحات بدأ صدورها فى سنة ١٩٤٤م بعدد اشتراكات لا يتجاوز ١٢٧[١٠]، وكانت الدوائر العلمية الأمريكية بأكملها ليبرالية؛ حتى أن إحدى المؤسسات المحافظة وهى William Volker Fund اضطرت للاستعانة بمساعدين للبحث عن باحثين يمكن إغراؤهم بتلقى هباتها السخية.[١١] وكان العنوان الاحتياطى لكتاب راسل كيرك «العقلية الجمهورية ـ The Conservative Mind » الذى تناول فيه تاريخ تحول حركة المحافظين الأنجلو ـ أمريكية هو «مسار المحافظين ـ The Conservative Rout».

أما الليبراليون، فكانوا يعتبرون العالم كله عالمهم. يقول ليونل تريلنج فى كتابه «الخيال الليبرالى ـ The Liberal Imagination »١٩٥٠م، «الليبرالية ليست التراث الفكرى السائد، بل الوحيد فى الولايات المتحدة». واعترف بأن البلاد تشهد حركة محافظة ناشئة، ولكنها تعبر عن نفسها بـ«إشارات عقلية انفعالية» لا بأفكار مكتملة النمو.[١٢] وذهب لويس هارتس إلى أبعد من ذلك فى كتابه « التراث الليبرالى فى أمريكا ـ The Liberal Tradition in America». فهو يرى أن عدم وجود أرستقراطية إقطاعية وطبقة عمالية ذات وعى طبقى، معناه أن أمريكا أنقى مثال للمجتمع الليبرالى فى العالم. وكانت أكبر مشكلة تواجه الليبرالية الأمريكية افتقارها لخصم محافظ قوى.[١٣] وفى كتابه « نهاية الأيديولوچيا ـ The End of Ideology»، ١٩٦٠م، يرى دانييل بل الذى كان حينذاك من ركائز المعسكر الليبرالى، أن الصدام الحاد بين اليسار واليمين حل محله نقاش هادئ عن فنون الإدارة.

كان عدم وجود حركة محافظة قوية معناه أن الأمريكيين الذين شاء حظهم العثر أن يعانوا حركة ليونل تريلنج «نبضة المحافظة» لم يكونوا سوى حفنة ضعيفة من الناس، وبهذا يسقطوا فريسة لواحد من انحرافات فكرية ثلاثة هى: عقدة الارتياب، والتى قد يصحبها عقدة الاضطهاد جنون العظمة مع غرابة الأطوار والاغتراب.

وجدت عقدة الارتياب وما يصاحبها منافذ عدة فى اليمين. فطاف القس بيلى چيمس هارجيز البلاد فى حافلة جريهاوند مصنوعة بمواصفات خاصة ليدين الشيوعية والخيانة. ووجه كنت كورتنى مؤسس «جمعية أمريكا المحافظة ـ Conservative Society of America» الاتهام لبارى جولدواتر بأن « الاشتراكية أفسدته». وكان هارولد لافاييت هنت، وهو ملياردير نفطى اشتهر بزواجه بامرأتين ومن كبار ممولى قضايا اليمين، يرى أن قوة تصويت الناس ينبغى أن تحددها درجة ثرائهم (وهو ما يعنى أن يكون له كم هائل من الأصوات). وفى كتابه «الحكومة الخفية ـ The Invisible Government » «حذر من وجود مؤامرة خبيثة لتحويل أمريكا إلى دولة اشتراكية، ثم إلى وحدة فى منظومة اشتراكية تنتظم العالم كله».

واكتسبت عقدة الارتياب زخمًا هائلاً فى عهد رئاسة ترومان من خلال سلسلة أحداث عنيفة أثبتت أن هناك الكثير مما يوجب الإحساس بعقدة الاضطهاد، ألا وهى قضية ألجر هيس. ومن أربعينيات القرن العشرين فصاعدًا، ترسخت قضية المحافظين على يد مجموعة متنامية من المثقفين الماركسيين ممن تحرروا من الوهم. وظهرت مجموعة من التروتسكيين المعدلين من أمثال الكاتب چيمس بورنام، كانوا من عيار مختلف عن أمثال هارجيز و هنت، إلا أنهم ركزوا أيضًا على حاجة أمريكا لمقاومة الخطر السوفييتى بشكل أقوى سواء فى الداخل أو فى الخارج. وفى أغسطس ١٩٤٨م قام ويتيكر تشيمبرز أحد الشيوعيين السابقين الغاضبين والمحرر بمجلة تايم بإبلاغ «لجنة الأنشطة المعادية لأمريكا» التابعة للكونجرس بأن أحد مصادر معلوماته فى الثلاثينيات كان موظفًا شابًا بوزارة الخارجية يدعى ألجر هيس. وكان هيس آنذاك ترك وزارة الخارجية ولكنه كان من أكبر مفاخر مؤسسة واشنطن ـ مبعوث أمريكا إلى مؤتمر يالطا ورئيس وقف كارنيجى للسلام الدولى وعنصر دائم بحفلات عشاء چورچ تاون ـ فسارع بمقاضاة تشيمبرز بتهمة التشهير. وهبت أمريكا الليبرالية للدفاع عن هيس الخير

فى مواجهة تشيمبرز الشرير. وأدان الرئيس ترومان القضية بوصفها «مسألة تافهة يراد بها صرف الانتباه عن أمور جادة». وأصرت إليانور روزفلت على أن هيس ضحية حملة تشويه يتزعمها عضو مجلس النواب، شاب مقزز من كاليفورنيا هو ريتشارد نيكسون. فأدهش تشيمبرز البلاد بإنتاجه فيلمًا وثائقيًا أثبت به أن كليهما تجسسا لصالح السوفييت فى الثلاثينيات. فحوكم هيس بتهمة الحنث باليمين، وفى يناير ١٩٥٠م حكم عليه بالسجن خمس سنوات.

أدت قضية هيس إلى تعميق عداء المحافظين للمؤسسة الليبرالية. لم انقلب مجتمع واشنطن على تشيمبرز؟ ولم قال وزير الخارجية دين أتشيسن إنه ما كان ليتخلى عن ألجر هيس حتى بعد إدانته بالتجسس لصالح الروس؟ فى كتابه «الشاهد» (١٩٥٢م) أثار تشيمبرز مسألة كتب لها أن تتطور على يد أجيال من المحافظين بين صفوف «الأغلبية الصامتة»:

> ليست هناك سمة فى قضية هيس أوضح أو أكثر إزعاجًا كتاريخ من الشرخ المستور، الذى كشفت عنه ولم تصنعه، بين الأمة ومن يتصرفوا ويفكروا ويتحدثوا بإسمها . . . كان أنصار الذهن المنفتح ورجل الشارع من المستنيرين والأقوياء والمعترضين هم الذين نزعوا عقولهم فى حالة هوس مؤيدة لهيس . . .[١٤]

مهدت أحداث قضية هيس الساحة للرجل الذى جاء ليجسد عقدة الاضطهاد عند اليمين فى الخمسينيات وهو السيناتور جوزيف مكارثى. كان موقع «چو» فى مركز السياسة الأمريكية منذ فبراير ١٩٥٠م حين سافر إلى ويلنج بغرب ڤيرچينيا ليعلن أن بحوزته أسماء مائتين وخمسة جواسيس شيوعيين بوزارة الخارجية، إلى ديسمبر ١٩٥٤م حين صوت مجلس الشيوخ بأغلبية اثنين إلى واحد بإدانة تصرفه. لم ينتخب مكارثى عضوًا بمجلس الشيوخ عن وسكونسن إلا فى سنة ١٩٤٦م قبيل بلوغه الأربعين، وفاز بعدد ضخم من الأنصار، بينما أخذت نواديه تنتشر فى كل مكان فى البلاد فى وقت واحد. ولم يكن أدلاى ستيڤنسن مرشح الرئاسة الديمقراطى فى سنة ١٩٥٢ و١٩٥٦م والتجسيد الحى لليبرالية المنفتحة يبالغ كثيرًا عندما قال إن الحزب الجمهورى نصفه أيزنهاور ونصفه الآخر مكارثى.

كان مكارثى كاثوليكيًا أيرلنديًا نشأ بمزرعة صغيرة بالغرب الأوسط والتحق بجامعة ماركيت الكاثوليكية فى ميلووكى حيث عشق الملاكمة. وكان مكارثى يجسد الاستياء الشعبى تجاه النخبة الليبرالية. كان يتحدث كالمراكبية ويلبس كالأجلاف ويشرب كالسمكة، ويعبر عن الاستياء الذى يكنه ملايين من أمثاله حين أدان «وزارة الخارجية بما تمثله من جبن وامتيازات»، وحين هاجم دين أتشيسن ووصفه بأنه «ديبلوماسى مغرور» يرتدى سروالاً مخططًا ويمسك بمنديل صغير ويتحدث بلكنة بريطانية مصطنعة، وحين اتهم چورچ مارشال بأنه «شريك فى مؤامرة ضخمة وشائن السلوك بصورة تفوق أيًا من أمثاله من الأقزام فى تاريخ البشرية». وصرح ذات مرة لحشد من الصحافيين قائلاً: «لو أردتم أن تعادوا مكارثى يا أولاد، فلا بد أن تكونوا إما شيوعيين أو شواذ». [١٥] فلا غرو أن رأى پريسكوت بوش ضرورة أن يلقنه درسًا فى الذوق.

لم تكن مخاوف مكارثى كلها واهية، إذ تبين فعلاً وجود بعض الشيوعيين بوزارة الخارجية. إلا أن لا مبالاته الطائشة بالتفاصيل وأسلوبه التهديدى وتزايد إدمانه على الكحوليات أضر بقضيته. حتى اعترف روى كون ذراعه الأيمن بأن الناس قد ينفرون من «مزاجه المتقلب ولهجته التهديدية وسحنته المكفهرة». وبحلول سنة ١٩٥٥م كانت المكارثية حطت من قيمة إحدى أوراق اليمين الرابحة ألا وهى معاداة الشيوعية، وأمدت الليبراليين ببعبع دائم يخيفون به الشعب من المحافظين.

ربما كانت عقدة الارتياب أوضح نقائص اليمين، لكن غرابة الأطوار كانت الداء الأكثر شيوعًا. كان ألبرت چاى نوك واحدًا من شيوخ اليمين الكبار القلائل من حقبة ما بعد الحرب، أرستقراطيًا بطابع شخصى، يشمئز من «الدولة عدونا» وهو العنوان الذى اختاره لأحد مقالاته، وكان يتعالى على البسطاء من الناس. وكان يعتبر رفاقه من المثقفين المحافظين «بقايا» معزولين عن الاتجاهات السائدة فى الحياة الأمريكية ـ وزاد من عزلته ملبسه الغريب وإمساكه بعصا يتوكأ عليها وسمى سيرته الذاتية «مذكرات رجل لا لزوم له ـ Memoirs of a Superfluous Man»، (١٩٤٣م). واتهم نوك بلاده بأنها تتبع شريعة اللصوص الخُلُقية، وكان يرى أن المجتمع الأمثل فى العالم لا وجود له إلا فى بلچيكا.

وكان أيضًا من الصليبيين ذوى الملابس الغريبة آين راند، وهى مهاجرة روسية دوّنت عددًا من الروايات تحتفى بالفردية الاقتصادية. وهى حاليًا من شخصيات اليمين

المبجلة. ولها روايتان هما «المنبع ـ The Fountainhead »، (١٩٤٣م) و«أطلس اللامبالى ـ Atlas Shrugged»، (١٩٥٧م) بيعت نسخهما بالملايين، وكان تعصب ألن جرينسپان رئيس الاحتياط الاتحادى لها عاملاً ساعد على علو مكانتها. إلا أن الإعجاب الذى أحاط بها كان يبدو غريبًا بعض الشىء بالنسبة للعديد من معاصريها. وكان من تصوراتها دولة فائقة الصغر بلا ضرائب أو تقاليد من أى نوع، بما فى ذلك المسيحية. وكانت تدعو لفلسفتها «الموضوعية» بلكنة روسية ثقيلة، وكانت تحث الناس على التمتع بأكبر قدر من الشبق، وكانت تلبس رداء أسود متهدلاً بلا أكمام مزررًا بدبوس ذهبى على شكل علامة الدولار. وصرحت ذات مرة لمجلة تايم بأن «الصليب رمز التعذيب، وأنا أفضل علامة الدولار رمز التجارة الحرة، وبالتالى رمز العقل المتحرر». (١٦) وتنتهى روايتها بلحظة بعد رؤيوية، يبارك فيها أحد أبطال الرواية الناجين الأرض المقفرة برسم رمز الدولار فى الهواء. وكانت راند تؤمن بأن الناس مكلفين بالتدخين (لأنه يمثل ترويض الإنسان للنار). وفى حفل صدور روايتها «أطلس اللامبالى» تم تقديم سجائر مصنوعة خصيصًا لتلك المناسبة وتزدان برمز الدولار مطبوعًا على وريقات ذهبية. وفى القداس الجنائزى الذى أقيم لها فى سنة ١٩٨٢م، وضع رمز دولار بارتفاع ستة أقدام بجوار نعشها المفتوح، وكانت تتردد فى جنبات القاعة أنغام أغنية «إنها رحلة طويلة إلى تيپيرارى». (١٧)

كانت راند تركز على المستقبل. وثالثة سمات حركة المحافظين بعد الحرب الاغتراب. كان ريتشارد ويڤر الجنوبى الذى أمضى معظم حياته الأكاديمية يدرس الأدب الإنجليزى بجامعة شيكاغو يكنى بـ «قديس الفلاحين». كان يعشق الجنوب القديم وعالم المزارع الإقطاعية والإيمان الدينى والأخلاق النبيلة. وفى كتابه «تراث الجنوب فى خطر ـ The Southern Tradition at Bay » (نشر عقب وفاة مؤلفه فى سنة ١٩٦٨م، ولكنه دونه فى الأربعينيات؛ حيث كان رسالته لنيل درجة الدكتوراه) ذهب إلى أن الجنوب «آخر الحضارات غير المادية فى العالم الغربى»، وأنه مجتمع كان «على حق دون أن يدرك أسباب ذلك». واتهم الحرب الأهلية بنشر شريعة حرية السوق الوحشية إلى سائر بقاع الولايات المتحدة. وكتابه الأشهر «الأفكار لها عواقب ـ Ideas Have Consequences» (١٩٤٨م) يبدأ بالعبارة الجريئة التالية: «هذا كتاب آخر عن اضمحلال الغرب». ويقول فيه إن الأمور بدأت تسوء فى أواخر القرن الرابع عشر بعد أن تخلى الإنسان عن إيمانه بالقيم السامية وتحول إلى فلسفة ويليام أوكام الاسمية.

كان عميد الاغتراب راسل كيرك، الذى سعى لإعادة تأويل إدموند بورك لأمريكا أيزنهاور. ففى كتابه الثمين «العقلية المحافظة ـ The Conservative Mind» (١٩٥٣م) يرى كيرك أن الثورة الأمريكية كانت مشروعًا محافظًا يقوم على رؤية شكية للطبيعة الإنسانية ومكانة التراث. وحظى كيرك بمقالات متحمسة نشرت عنه فى صحيفة نيويورك تايمز ومجلة تايم، إلا أنه بدأ فى اعتزال الحياة العامة بهاجس داخلى ساوره. فأمضى حياته فى قرية ميكوستا (عدد سكانها مائتا نسمة) بولاية ميتشيجان واعتبر نفسه «آخر إقطاعى فى الريف المهجور»، ووصف السيارة ذات المحرك رمز الحياة الأمريكية «الراهب الآلى». [١٨] والرأسمالية عند كيرك ليست سوى صورة أخرى من الشيوعية («روكفلر وماركس لم يكونا سوى عنصرى قوة اجتماعية واحدة»). والخلاص عنده فى تدرج هرمى اجتماعى ثابت تفرضه المشيئة الإلهية. ولا غرو أن اتهم أحد النقاد كيرك بأنه يبدو «كرجل ولد متأخرًا مائة وخمسين سنة عن عصره وفى البلد غير المناسب». [١٩]

ماذا حدث وحول هذه الأشياء المختلطة الغريبة إلى أبطال ثورة محافظة؟ كانت هناك ثلاثة أشياء تموج تحت سطح أمريكا أيزنهاور. أولها وصول جماعة من المستثمرين المثقفين. وثانيها نفاد صبر الجنوب من الحزب الديمقراطى. وثالثها تحول مركز جاذبية أمريكا إلى الغرب. وكل هذه القوى جمعها معًا بارى جولدواتر.

أماكن للتفكير

كانت العلامة الأولى على أن حياة اليمين الفكرية كانت شيئًا أكبر من مجرد عرض مسرحى غريب، هى بزوغ نجم جماعة من اقتصاديى حرية السوق. استمد هؤلاء الاقتصاديون فكرهم من مكان بعيد الاحتمال هو النمسا. تذهب المدرسة النمساوية حسب قول لودفيج فون مايسس Ludwig von Mises، وهو أحد مؤسسيها، إلى أن «القضية الرئيسية هى ما إذا كان ينبغى على الإنسان أن يتخلى عن الحرية والمبادرة الفردية والمسئولية الفردية ويستسلم لوصاية جهاز عملاق من القهر والإكراه، أى الدولة الاشتراكية». [٢٠] والرجل الذى أقنع العديد من الأمريكيين بأن هذه هى معركتهم أيضًا

كان «فريدريك فون هايك ـ Friedrich von Hayek» وهو أحد تلاميذ مايسس. فمن الثلاثينيات فصاعدًا، شن هايك حملة شعواء على السلفية الكينزية التى سادت الاقتصاد الأكاديمى وعلى كينز نفسه. وأصبح كتابه المثير للجدل «الطريق إلى العبودية ـ Road to Serfdom »[*] (١٩٤٤م) الذى يذهب هايك فيه إلى أن التخطيط المركزى هو المقدمة لإسفين الشمولية، أحد أكثر الكتب مبيعًا فى الولايات المتحدة، ونشرت مجلة Reader's Digest نسخة موجزة منه، وألقى هايك محاضرات فى أرجاء البلاد. وكان من أوائل من آمنوا به أحد ممثلى هولى وود فى أواسط العمر، يدعى رونالد ريجان. وعندما زار لى إدواردز أحد كبار مؤرخى حركة المحافظين محافظ كاليفورنيا الجديد فى سنة ١٩٦٧م، أدهشه أن يجد أرفف رونالد ريجان تحوى نسخًا من كتب هايك وڤون مايسس، ازدحمت صفحاتها بتعليقات وحواشى خاصة.[٢١]

كما ساعد هايك فى بناء اثنتين من مؤسسات اليمين الراسخة «جمعية ماونت پيلرين ـ Mount Pelerin Society»، لأنصار حرية السوق (تأسست بسويسرا لا الولايات المتحدة فى سنة ١٩٤٧م)، ومدرسة شيكاغو. وانتقل هايك إلى جامعة شيكاغو فى سنة ١٩٥٠م، ومع أنه انضم إلى «لجنة الفكر الاجتماعى» لا إلى قسم الاقتصاد، فإنه ساعد على جعل الجامعة مركز قيادة حركة تمرده. كانت مدرسة شيكاغو تمثل اعتراضًا على الفكرة القائلة «كلنا أصبحنا كينزيون الآن» (حسب عنوان غلاف مجلة تايم فى سنة ١٩٦٥م) والفكرة القائلة بأن «الاقتصاد السوڤييتى دليل على أن . . . أى اقتصاد اشتراكى موجه يمكن أن ينجح بل أن يزدهر» (حسب ما ورد بكتاب پول صامويلسون الدراسى آنذاك). وأكد علماء الاقتصاد فى شيكاغو، من أمثال ميلتون فريدمان[**] أن الإنفاق الحكومى ينبغى خفضه إلى رقم صغير يقتصر على «المصالح العامة» لا سيما الدفاع ـ وأن كل ما عدا ذلك يجب أن يُترك للسوق.

وازداد استياء أولاد شيكاغو[***] من تدخل الحكومة الضخمة فى الاقتصاد، وأشاروا إلى قوانين التحكم فى الإيجارات. هل يمكن لأحد أن يجد طريقة لخفض كم العقارات المعروضة للإيجار فى السوق أفضل من خفض المبلغ الذى يمكن لأصحاب

(*) ترجمته دار الشروق ونشرته بالعربية عام ١٩٩٤م.

(**) توفى فى نهاية عام ٢٠٠٦م.

(***) يُطلق هذا على المؤيدين لفكر هايك، سواء كانوا دارسين فى الجامعة أو خريجيها، أو حتى غيرهم ما داموا مؤيدين لذلك الفكر.

العقارات أن يحصلوه لعقاراتهم؟ طرح فريدمان هذه التساؤلات كما فعل هايك ، لا مع زملائه الأكاديميين وحسب، بل مع الناس فى الشارع، وكتب عموداً لمجلة نيوزويك ونشر كتاباً حقق مبيعات كبيرة بعنوان « الرأسمالية والحرية - Capitalism and Freedom » فى (سنة ١٩٦٢م).

كان اليمين فى ذلك الوقت قد بدأ فى جمع مساحة تفكير أكبر قليلاً. وفى أوائل الخمسينيات، لم يكن المثقفون المحافظون فى وضع حرج بسبب غرابة أطوارهم وحسب، فما كان يريده أنصار حرية السوق، هو نفسه ما كان يريده شيوعيون معتدلون من أمثال بورنام، وتقليديون من أمثال كيرك : منبر ذو ثقل يتحدثون من خلاله خارج الجامعات «الليبرالية» الرهيبة ليناقشوا أفكارهم، ويرتقون فيها بأنفسهم. وظهرت هذه الفرصة فى أواسط الخمسينيات، على شكل منتدى فكر أعيدا إلى الحياة، ومجلة جديدة.

أنشئ أقدم منتدى فكر محافظ فى واشنطن فى سنة ١٩٤٣م على يد جماعة من رجال الأعمال. وكان «اتحاد الأعمال الأمريكى» (كما سمى عند نشأته) كياناً بلا ملامح - مجرد جمعية مهنية احتشدت ضد تحديد الأسعار فى وقت الحرب، وتستأجر بعض الباحثين من حين لآخر لعمل تقارير. لم يكن بحجم مؤسسة بروكنجز التى كانت أكثر نضجاً، ولها ميزانية أكبر ومقر أفخم وقدرة على جذب الباحثين الأكاديميين، ولها صلات وثيقة بالمؤسسة السياسية. وفى سنة ١٩٥٤م، فكر رئيس الاتحاد فى إخراج التنظيم من بؤسه، ولكنه بدلاً من ذلك جند ويليام بارودى وهو اقتصادى شاب من غرفة التجارة ليدير المكان.

وأثبت بارودى، وهو ابن مهاجر لبنانى فقير، أنه رجل أعمال مثقف موهوب. كان هدفه تحويل «معهد الأعمال الأمريكى» (كما سماه فيما بعد) إلى «خبراء فكر». أدرك استحالة وجود حركة محافظين دون وجود نظرية محافظة. فعمل دون كلل هو وجلين كامبل، وهو اقتصادى تدرب فى هارفارد من أجل جمع مجموعة من الباحثين المهرة وعين فريدمان واقتصادياً آخر من أنصار حرية السوق، وهو بول مكراكن من جامعة إيلينوى، مستشارين أكاديميين. وكان الهدف واضحاً : فإذا كان اليمين يجد صعوبة فى توصيل صوته إلى الجامعات، فعليه أن ينشئ لنفسه مؤسسات محافظة، وبدلاً من تعليم الطلاب يقوم بتعليم الساسة.

وفى الوقت نفسه، كان حدث مشابه يتفاعل على الجانب الآخر من البلاد فى مؤسسة هوفر. كان هربرت هوفر قد أنشأ مركزه الفكرى بجامعة ستانفورد فى سنة ١٩١٩م لحفظ مجموعته المتميزة من الوثائق التى جمعها كموظف إغاثة من المجاعة فى أوروبا. وبعد فقدانه وظيفته فى سنة ١٩٣٢م، دفع هوفر المركز فى اتجاه أكثر محافظة. فأراد أن ينشئ مؤسسة «خالية من وصمة اليسار» ومكرسة لمهمة كبرى هى «فضح شرور تعاليم كارل ماركس». وفى سنة ١٩٦٠م، عينت مؤسسة هوفر جلين كامپل شريك بارودى مديراً لها، وشرع كامپل فى تحويل برج هوفر إلى منارة لحركة المحافظين فى البحر المحيط بها من الليبرالية الأكاديمية.

كان أهم منابر الفكر المحافظ مجلة ناشيونال ريڤيو. وأتى ويليام إف. بكلى بثلاث سمات حيوية إلى عالَم أمريكا المحافظ الصغير، حين قرر إصدار المجلة فى سنة ١٩٥٥م. كان أولها ثقته الفائقة بقدراته. ففى سن الخامسة، بعث رسالة للملك چورچ الخامس يقترح عليه فيها أن يسدد جلالته ديون الحرب المتأخرة على بريطانيا والمستحقة للولايات المتحدة.[٢٢] وعقب تخرجه من جامعة ييل، نشر هجومًا لاذعًا على كليته بعنوان «الله والإنسان فى ييل» (١٩٥١م) بسبب عدائها لكل من المسيحية والرأسمالية. وكانت سمته الحيوية الثانية دخله الخاص الكبير من صناعة أبيه النفطية، والثالثة روحه المرحة التى أضفت على عقيدته سمة أكثر إنسانية.

بدأ بكلى إصدار العدد الأول من مجلة ناشيونال ريڤيو ببيان مدوى عن نواياه، وهى أن المجلة «تعترض التاريخ وتصرخ قائلة «قف» فى وقت لا أحد يقدم فيه على ذلك، أو يتحلى بالصبر على من يقدم على ذلك». أراد بكلى أن يصد موجة الإلحاد المتنامية والنزعة الجماعية الاشتراكية التى سبق أن شخصها فى كتابه «الله والإنسان فى ييل» كما أراد أن يحيل حركة المحافظين من كومة من المبادئ الإقليمية ـ حركة محافظين جنوبية وحركة محافظين غربية وسطى وغير ذلك ـ إلى عقيدة قومية فعلية، ومن هنا جاء عنوان مجلته. وكان إعلان بكلى للممولين بسيطًا: «الصفقة الجديدة» لقى العون من الأهل ومن الجمهورية الجديدة. فلم لا تتبرع لمجلة وعدت بعمل مماثل لحركة المحافظين؟[٢٣] وكان إعلانًا اضطر لنشره من حين لآخر لأن أكثر منشورات أمريكا الداعمة لحرية السوق، بدأت قزمًا تجاريًا بمبلغ لا يزيد عن مائة ألف دولار من مال أبى بكلى واعتمدت على سخاء المتبرعين. إلا أن المجلة أثبتت وجودها فى حياة

الأمريكيين؛ حيث ارتفع توزيعها من ٣٤ ألف نسخة فى سنة ١٩٦٠م إلى ٩٠ ألفًا فى سنة ١٩٦٤م.[٢٤]

وصارت المجلة قاعة مناقشات اليمين. ونجح بكلى فى تجنب اللهجة المتعالية التى تنتاب المتمردين دائمًا. ونشر لبعض الكتّاب من العيار الثقيل. فكتب چيمس بورنام عمودًا بعنوان «الحرب العالمية الثالثة». كما اجتذب بكلى كتابًا من الشباب مثل چون ديديون وجارى ويلز اللذين كانا يمران بالمراحل الأولى فى طريق المحافظين، مما ساعد على حقن دماء متباينة فى جسد حركة طالما اتهمت بالعزلة والتقادم. ولم تكتف المجلة بمهاجمة اليسار؛ بل نبذت «اليمين اللا مسئول» أيضًا. فكان چيرالد سميث و«حملته الصليبية القومية» هدفًا واضحًا لها. ومن أفضل المقالات الأولى هجوم ويتيكر تشيمبرز على رواية أيان راند بوصفها كومة من هراء وثنى صاخب. وقال: «فى أى من صفحات رواية «أطلس اللامبالى» يمكن سماع صوت آت من الفقر الأليم يقول «إلى غرفة الإعدام ـ تقدم».[٢٥] (وردت راند بإدانة المجلة باعتبارها «أسوأ وأخطر مجلة فى أمريكا»).[٢٦]

وحاول بكلى أن يوفق بين العناصر الثلاثة لحركة المحافظين فى أواخر الخمسينيات، وهى التقليدية وحرية الإرادة (مذهب مؤيد للحرية، خاصة فى الفكر والعمل ـ libertarianism) ومعاداة الشيوعية، وتساءل: أليست الشيوعية أكبر خطر يهدد التراث اليهودى المسيحى الغربى؟ وأليست السوق الحرة أفضل من الحكومة فى نشر التقاليد الأخلاقية؟ كما أضفى بكلى قليلاً من البريق على حركة المحافظين الوليدة. وعلق ويليام راشر مدير تحرير المجلة ذات مرة قائلاً: «لم تكن حركة المحافظين مجهولة إلى درجة الخفاء بالنسبة لليبراليى الخمسينيات».[٢٧] كل ما هنالك أن معظم المحافظين كانوا أكثر كآبة من أن يوليهم الناس أى اهتمام. لكن بكلى لم يكن كئيبًا بالمرة. ففجأة ظهر محافظ ينشر كتبًا ويظهر على شاشات التليفزيون مع الليبراليين قبل أن يسرع إلى أحد الملاهى الليلية. وفى سنة ١٩٦٠م، ساعد على إنشاء «شباب أمريكى من أجل الحرية» وهى حركة شبابية انتشرت كالنار فى الهشيم فى طول البلاد وعرضها، وأضافت خمسة آلاف وأربعمائة عضو جديد فى سنة ١٩٦٤م، وحدها فى وقت لم يزد فيه إجمالى عدد أعضاء منافستها الأشهر «طلبة من أجل مجتمع ديمقراطى» عن ألف وخمسمائة.

أمد هؤلاء المثقفون اليمين فى النهاية برسالته ومصدر إلهامه. ولكن ماذا عن القاعدة الشعبية؟ كان من أسباب ضعف تأثير اليمين أن قاعدته كانت منقسمة بين حزبين. فالمحافظون فى الشمال الشرقى والغرب الأوسط ربما يعتبرون مكانهم الطبيعى الحزب الجمهورى. أما محافظو الجنوب فكانوا ينتمون للحزب الديمقراطى.

وفى سنة ١٩٥٠م، لم يكن للحزب الجمهورى أعضاء بمجلس الشيوخ من الجنوب، وعضوين فقط فى مجلس النواب من وفد جنوبى مؤلف من مائة وخمسة أعضاء.[٢٨] وطوال السنوات الخمسين السابقة لم يحصد سوى ثمانين فوزًا من ٢٥٦٥ سباق انتخابى لعضوية مجلس النواب - خمسون منها فى دائرتين فقط بشرق تينيسى. فالجمهوريون اغتربوا عن المنطقة إبان الحرب الأهلية وكانوا يعتبرون فى نظر الكثيرين السبب فى «الكساد العظيم». بعد لقائه عددًا من جمهوريى وول ستريت، علق سام ريبورن قائلاً: «لم أر فى حياتى مثل هذه القاذورات».[٢٩] أما الديمقراطيون، فكانوا يدافعون عن الفصل العنصرى فى الجنوب ويقدمون الموارد اللازمة للمنطقة عبر «الصفقة الجديدة» ويتملقون دافعى الضرائب الشماليين لتمويل بناء السدود الضخمة والطرق. يقول ترنت لوت الذى نشأ بولاية ميسيسيبى فى الأربعينيات والخمسينيات: «لم ألتقِ جمهوريًا حيًا من قبل».[٣٠]

إلا أن الجنوب الذى نشأ فيه زعيم الحزب الجمهورى المستقبلى فى مجلس الشيوخ كان يتغير. إذ شهدت سنوات ما بعد الحرب هجرة داخلية هائلة من الجنوب الريفى إلى مدن الشمال الداخلية، وتحرك البيض جنوبًا سعيًا وراء فرص عمل أو بيوت للتقاعد. وبدأ حكام الجنوب فى اجتذاب الشركات لولاياتهم بتقديم امتيازات «تنموية اقتصادية» سخية. وساعدت مكيفات الهواء على جعل رطوبة المنطقة محتملة بالنسبة للوافدين، وبدأ السكن فى الضواحى فى القضاء على بعض علاقات الجنوب الإقطاعية.

ما كان أى من هذا ليهم بدون حركة الحقوق المدنية. إذ بقى بيض الجنوب على ولائهم للديمقراطيين طالما تغاضى الحزب عن الممارسات العنصرية بالمنطقة. إلا أنه تزايد عدد الديمقراطيين الشماليين الذين وجدوا أن الصفقة غير مقبولة. غادر ستروم

ثرموند محافظ كاليفورنيا الجنوبية آنذاك مؤتمر الديمقراطيين لسنة ١٩٤٨م بعد أن انتزع الديمقراطيون الشماليون وعداً «بالقضاء على كافة أشكال التمييز العرقى والدينى والاقتصادى». وبعد أسبوعين ساعد فى تشكيل حزب الحقوق فى الولاية ـ أو «ديمقراطيو الجنوب - Dixiecrats» فى حشد أقيم فى برمنجهام بولاية ألاباما. وأعلن ثرموند ومرشحه لمنصب نائب الرئيس فيلدنج رايت محافظ ميسيسيبى: «نحن نؤيد الفصل بين الأعراق والوَحدة العنصرية لكل عرق» ـ أى التفرقة فى المدارس والتفرقة فى موائد الغداء والتفرقة فى الحمّامات وكافة آليات التفرقة التى استنها چيم كرو. وأهاج ثرموند جمهوره الذى كان يلوح بأعلام الكونفدرالية(*) حين أعلن: «كل قوانين واشنطن، وكل حراب الجيش، لا تستطيع أن تفرض علينا أن يشاركنا العبيد فى ديارنا ومدارسنا وكنائسنا». وكان هذا التصريح يشوبه قدر من النفاق، لأن المحافظ كان أنجب طفلاً غير شرعى بالفعل من خادمة زنجية، لكن المرشح ثرموند نجح فى الحصول على أربع ولايات فى انتخابات الرئاسة لسنة ١٩٤٨م هى ألاباما وميسيسيبى ولويزيانا وكاليفورنيا الجنوبية، وهبطت أصوات الديمقراطيين البيض بشكل كبير. وكان ما يقرب من ثلاثة أرباع الجنوبيين البيض صوتوا لصالح روزڤلت فى انتخابات ١٩٤٤م؛ وبعد أربع سنوات لم تزد نسبة من صوتوا لصالح ترومان عن النصف.(٣١)

التحق ثرموند الحزب الديمقراطى لفترة وجيزة، إلا أن بذور الشك فى غدر الديمقراطيين كانت قد غُرست فى نفوس العديد من الجنوبيين البيض. وكان التساؤل الكبير الذى يساورهم عن طبيعة الحزب الجمهورى. فأبرز الجمهوريين الجنوبيين كانوا فى وفود «السود والسمر» ـ السود الذين احتشدوا بكل إخلاص فى مؤتمرات الجمهوريين وحظوا برعاية اتحادية كلما فاز الحزب الجمهورى بالبيت الأبيض.(٣٢) ولم يكن موقف الجمهوريين من المسألة العرقية مما يمكن وصفه بالتقدمى بالمعنى الحديث. فنجد أيزنهاور ـ المعتدل بصفة عامة ـ الذى عارض خطة ترومان لإلغاء الفصل العنصرى فى القوات المسلحة فى سنة ١٩٤٨م يقول لإيرل وارين أنه يدرك سبب رفض الجنوبيين جلوس «بناتهم الصغار الحلوين» بجوار «عبد ضخم الجثة» فى المدارس.(٣٣) ومع ذلك كان الجمهوريون أكثر ليبرالية من الديمقراطيين طوال الخمسينيات فى

(*) فى عام ١٨٦١م، انسحبت إحدى عشر ولاية جنوبية من الولايات المتحدة وأعلنت الكونفيدرالية برئاسة چيفرسون داڤيز، وهى التى أشعلت الحرب الأهلية بشن الهجوم على مقار الحكومة الفيدرالية.

التصويت على مشروعات القوانين الخاصة بالإعدام بدون محاكمة(*) وغيرها من الموضوعات العرقية المشحونة. وفى سنة ١٩٦٢م حين سئلوا عن «أى الحزبين يعين الزنوج على الحصول على معاملة عادلة فى فرص العمل؟» أجاب ٧, ٢٢ ٪ من الأمريكيين بأنهم الديمقراطيون وأجاب ٣, ٢١ ٪ بأنهم الجمهوريون، والبقية كانوا بلا رأى حول الموضوع.(٣٤)

وبعد سنتين تغيرت الأرقام تغيراً جذريّا، ففى أواخر ١٩٦٤م اعتبر ٦٦ ٪ من الناخبين أن الديمقراطيين سيساعدون السود على الحصول على فرص عمل بينما رأى ٧ ٪ أن الجمهوريين سيفعلون ذلك.(٣٥) وهناك سببان لذلك، هما قانون الحقوق المدنية لسنة ١٩٦٤ وبارى جولدواتر. كان قانون الحقوق المدنية تشريعًا اجتماعيّا مهمًا حظر تركيبة الفصل العنصرى الراسخ فى الجنوب ـ من المدارس إلى موائد الطعام. والقانون تقدم به چون كنيدى فى يونيه ١٩٦٣م، وعقب اغتياله دفع به چونسون إلى مجلس النواب على الرغم من الحيل القانونية لعرقلته من قبل زملائه الديمقراطيين. فكان ويليز روبرتسون عضو مجلس النواب عن ڤيرچينيا (ووالد پات الداعية التليفزيونى الإيڤانجليكى) يلوح بعلم كونفيدرالى صغير وهو يتحدث. وبالنسبة لثرموند كانت المسألة برمتها مبالغًا فيها. فعقب هزيمته فى المعركة الطويلة مع المؤسسة الديمقراطية القومية، انضم إلى الأذرع المنتظرة من الحزب الجمهورى.

وكان هذا اختياراً غريبًا إلى حد ما، لأن التأييد القوى من جانب جمهوريى روكفلر من الشمال الشرقى كان يعنى أن الحزب الجمهورى كان يقدم هوامش تأييد أكبر مما يقدمه الحزب الديمقراطى لكل من قانون الحقوق المدنية، وقانون حقوق التصويت لسنة ١٩٦٥م.(٣٦) إلا أن ثرموند لم ينضم إلى حزب نلسون روكفلر، بل انضم إلى بارى جولدواتر.

(*) الإعدام بدون محاكمة، كانت تقوم بها فرق الغوغاء وكوكولكس كلان للزنوج فى الولايات الجنوبية. وطبقًا لـ: القاموس السياسى ـ بريور، طبعة كاسل ١٩٩٣م صفحة ٣٦١ تحت مصطلح lynching جاء: منذ بدء تسجيل عمليات الإعدام بدون محاكمة، وصل عدد المشنوقين ٥٠٠٠، أغلبهم من السود، وكان من بينهم أيضًا بعض الكاثوليك واليهود والإيطاليين؛ حتى أن الرئيس ويلسون شبه عصابات الإعدام بالنازيين. قلت عمليات الإعدام بعد أن قدم الرئيس ترومان قانونًا بمنع ذلك فى ثنايا الصفقة العادلة، ولكنها استمرت بمعدل أقل حتى خمسينيات القرن العشرين.

إنجاز جولدواتر

كان المرشح الجمهورى للرئاسة فى سنة ١٩٦٤م واحدًا من ثمانية أعضاء بمجلس النواب صوتوا ضد قانون الحقوق المدنية. فاتخذ جولدواتر من حقوق الولايات (الذى كان يعنى بالنسبة للجنوب الحق فى الإبقاء على الفصل العنصرى) إحدى ركائز حملته الانتخابية للرئاسة فى سنة ١٩٦٤م. وجمعت هذه الحملة المفجعة ٥٥ ٪ من أصوات الجنوبيين البيض وفازت بخمس ولايات فى أعماق الجنوب وبنسبة مذهلة بلغت ٨٧,١ ٪ من الأصوات بولاية ميسيسيبى. ولولا ولايات الجنوب لما فاز جولدواتر إلا بولايته أريزونا (التى فاز بها بالكاد بفارق أصوات لا يزيد عن ٤٧٨٢ صوت).

كان موقف جولدواتر من الحقوق المدنية صورة مصغرة من إسهاماته لليمين. فمعارضته لمساواة السود فى الحقوق، عززت على المدى القصير فكرة أنه كان متعصبًا معتوهًا. خارج الجنوب، أيد الناخبون البيض قوانين الحقوق المدنية بأغلبيات هائلة، ولكنه هيأ الساحة للإستراتيجية الجنوبية للحزب الجمهورى على المدى البعيد - بسبب موقفه «المبدئى» تجاه حقوق الولايات، ولكن بدرجة أكبر بسبب ما فعل الديمقراطيون بطرحه الهائلى.

وذكر اسم بارى جولدواتر فى بعض الدوائر اليمينية فى أيامنا هذه يشبه ذكر اسم الأمير الرائع تشارلى فى إسكتلندا، إذ كان دائمًا الشاب الذى ولد ليكون ملكًا ولكنه حُرم التاج بغير وجه حق. يقول پات بوكانان إن حملة جولدواتر كانت بالنسبة للعديد من المحافظين مثل «الحب الأول»، وكان جولدواتر فى الحقيقة ذا شخصية جريئة. كان وسيمًا يقود سيارة ثندربيرد وطيار مقاتل، وكان يطير كلما سنحت له الظروف. وفى أثناء المؤتمر الذى عقد فى «كاو پالاس» بسان فرانسيسكو، وتم ترشيحه فيه، اجتاز السماء فوق المدينة بطائرته عدة مرات. وكان فى نظر أنصاره - وفيهم چون ديديون وبوكانان - يمتلك الشجاعة لأن يتحدى الثوابت الليبرالية لعصره ويقدم لناخبيه «اختيارًا لا صدى» كما كان يحلو له أن يقول.

كما كان مرشحًا رئاسيًا داهية بأية معايير تقليدية. قال چون كنيدى ذات مرة فى نقاش حول الخصوم المحتملين فى سنة ١٩٦٣م: «اعطنى بارى ولن اضطر للخروج من المكتب البيضاوى». [٣٧] فى ذلك الوقت كان جولدواتر يبدو مستبعدًا من ترشيحات

الجمهوريين للسنة التالية. كانت الفكرة السائدة أن هذه مهمة يرثها نلسون روكفلر. وفى سنة ١٩٦٤م جازفت صحيفة نيويورك تايمز بالقول بأن روكفلر أصبح بعيدًا عن احتمال الاستبعاد من الترشيح بعده عن الإفلاس. وكان انتصار جولدواتر الهزيل فى المؤتمر الانتخابى يعزى عمومًا لسببين. أولهما حياة روكفلر الخاصة؛ حيث طلق زوجته بعد زواج دام ثلاثين سنة فى سنة ١٩٦٣م وتزوج بعدها على الفور بمطلقة طلقت حديثًا تعرف باسم «هابى». كانت هذه بمثابة فضيحة للعديد من الجمهوريين المتزمتين، ومنهم پريسكوت بوش، وأمدت أنصار جولدواتر بشعار قوى مفاده «هل تريد زعيمًا أم عاشقًا فى البيت الأبيض؟»[٣٨]، والسبب الآخر التنظيم. فقد تولت جماعة جولدواتر بقيادة كليفتون وايت مدرس العلوم السياسية السابق بجامعة كورنل حملة الحزب بالجنوب، وابتكرت آلية لم تعرف من قبل فى الغرب، حيث غمروا مؤتمر الجمهوريين فى سان فرانسيسكو بمندوبين عن جولدواتر. فأبدى هنرى كابوت لودج دهشته وهو يقلب فى قائمة المندوبين قائلاً: «ماذا جرى للحزب الجمهورى بحق الله؟ أنا لا أعرف أيًا من هؤلاء الناس»[٣٩]

إشتكى روكفلر ـ وقد صعقه المشهد ـ من أن الحزب الجمهورى «معرض للدمار على يد أقلية راديكالية أحسن تنظيمها وتمويلها». وكان أنصار جولدواتر «أغراب تمامًا عن المرحلة الوسطى التى تحتضن الاتجاه السائد للعقيدة الجمهورية». [٤٠] وقَّع أكثر من ثمانين من مسئولى عهد أيزنهاور، سبعة منهم بدرجة وزير، خطابًا لاذعًا لمرشح حزبهم. [٤١] واشتم محافظ كاليفورنيا الديمقراطى إدموند ج. پات براون رائحة الفاشية فى الجو. [٤٢] وجاء تأييد جولدواتر الخارجى الوحيد من أنصار التمييز العنصرى بجنوب إفريقيا والملكيين الإسپان، والفاشيين الجدد الألمان، ولم تدعمه سوى ثلاث صحف هى لوس أنچيليس تايمز (كانت صحيفة مختلفة تمامًا آنذاك عما هى عليه اليوم) وشيكاغو تريبيون وسنسناتى إنكوايرر. [٤٣] وصدرت صحيفة ساترداى إيڤننج پوست الجمهورية النزعة بمقالة افتتاحية ورد فيها: «إن جولدواتر صورة هزلية شائهة من الشخصية المحافظة التى يزعم لنفسه. فهو رجل ضال طائش عديم الرحمة، وبلا مبادئ مثل چو مكارثى». وسخرت مجلة تايم قائلة: «كيف ستكون رئاسة جولدواتر؟ قصيرة طبعًا». [٤٤]

ولا غـرو أن أحس أنصـار جـولدواتر أنهم ضـحـايا حـملة مـخططة لاصطيـاد الساحرات(*). إلا أن التستر على جولدواتر كان «كإطلاق النار على سمكة فى برميل» كما قال ثيودور وايت أحد كبار مؤرخى السياسة الأمريكية.(٤٥) وكان الحل الذى إرتآه لكابوس العصر ـ المحرقة النووية ـ يتلخص فى جعل مثل هذه الحرب أمرًا يمكن بصنع أنواع من «أسلحة نووية صغيرة نظيفة» يمكن استعمالها فى الميدان.(٤٦) وكان متحمسًا بشكل خاص لجهاز نووى محمول يسمى Davy Crocket(٤٧). وسئل فى أثناء انتخابات كاليفورنيا التمهيدية عن رؤيته لكيفية سد خطوط الإمداد الشيوعية على طول الحدود مع ڤيتنام الجنوبية، فأجاب باقتراح مفاده «أن تُنزع أوراق شجر الغابات بأسلحة ذرية محدودة التأثير». ولا غرو «إعلان زهرة الربيع» الشهير الذى أنتجه الديمقراطيون (الذى يصور فتاة صغيرة تعد وريقات زهرة بينما يُسمع صوت رجل بالغ يعد عدًا تنازليًا لإطلاق صاروخ نووى) كان ذا تأثير سلبى بالغ.

لم تكن مجرد مسألة تطرف. فجولدواتر كسر ـ بابتهاج ـ كافة القواعد الأساسية للسياسة، وكان فى بعض الأحيان يبدأ خطبه بسرد قائمة كل من لا يريدهم أن يصوتوا له (على رأس قائمته «الكسالى والمتبطلون السعداء ممن يريدون أن يقتاتوا على ثمار عمل غيرهم».) وصرح لجمهور الحاضرين فى تكساس بأن عقود الطائرات كان يجب أن يكون من نصيب بوينج بسياتل لا من نصيب إحدى الشركات المحلية. كما أدان خطة چونسون لمكافحة الفقر فى المناطق الفقيرة بغرب ڤيرچينيا.(٤٨) ولم يتطرق إلى خط السياسة الثالث، ورفض إعانة البطالة بوصفها «تقاعدًا مجانيًا». وطلع أحد مشجعيه بمشروب يسمى «جولد واتر» (الماء الذهبى) ـ المشروب المناسب (Right Drink) للذوق المحفوظ «(المحافظ)». فلفظها المرشح ذو الحساسية السياسية على الفور ودمدم قائلاً «طعمه مثل البول! لن أشربه مع الجين».(٤٩)

كانت نتيجة الانتخابات واحدة من أفدح الهزائم فى تاريخ السياسة. إذ حصل جولدواتر على ٢٧ مليون صوت فى مقابل ٤٣ مليونًا لچونسون. وكان فوز چونسون بنسبة ٦١ ٪ من الأصوات وبأربع وأربعين ولاية، أكبر من الفوز القياسى الذى حققه

(*) مطاردة الساحرات ومحاكمتهن، ومن ثم إعدامهن، حادثة مشهورة فى تاريخ الولايات المتحدة، وفى أوروبا البروتستانتية، وكان ذلك فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

روزفلت فى سنة ١٩٣٦م. فاكتسح مد چونسون كل معقل جمهورى فى البلاد - سواء الغرب الأوسط الصناعى أو نيوإنجلاند، ولايات السهول أو ولايات جبل روكى. وفى مجلس النواب، واجه الجمهوريون أكبر أغلبية ديمقراطية منذ ١٩٣٦م، وفى مجلس الشيوخ واجهوا أغلبية بنسبة ٢ إلى ١، وفى برلمانات الولايات لم ينالوا سوى سبعة عشر من مناصب الحكام الخمسين فى البلاد.[٥٠] فى سنة ١٩٤٠م، وصف ٣٨٪ من الناخبين أنفسهم بالجمهوريين، مقابل ٤٢٪ ممن اعتبروا أنفسهم ديمقراطيين، وفى سنة جولدواتر المشؤومة تهاوت نسبة الجمهوريين إلى ٢٥٪ بينما ارتفعت نسبة الديمقراطيين إلى ٥٣٪.[٥١]

نتج عن هزيمة جولدواتر أن تحول الجمهوريون إلى منبوذين. وهناك حكاية غريبة يحكيها ثيودور وايت عن كارل هس كبير كتاب خطب جولدواتر.[٥٢] فكبار كتاب الخطب فى الحملات الفاشلة يجدون فى العادة وظائف آمنة فى آلية الحزب، لكن هذا لم يسر على كارل هس. إذ تقدم أولاً بطلبات عمل مع أعضاء محافظين بمجلس النواب ومجلس الشيوخ - أى الساسة أنفسهم الذين كانوا يهتفون له قبل أشهر قلائل. وحين ووجه بالرفض انخفضت طموحاته بشكل جذرى. فهل له أن يجد عملاً كعامل مصعد بمجلس النواب أو بمجلس الشيوخ؟ لم يواته الحظ فى ذلك أيضًا. فهبطت أسهم نبى حرية السوق إلى درجة عاطل. فسجل اسمه فى فصول المدارس المسائية لتعليم اللحام، وانتهى به الأمر بأن عثر على فرصة عمل فى دورية الليل بمحل للماكينات.

لو كان جولدواترفقط اجتذب بيض الجنوب إلى التحالف الجمهورى، لما استطاع أن يصنع التغيير. لكنه ربط الاتجاه المحافظ بمنطقة مختلفة تمامًا هى الغرب المزدهر. وظل اليمين الجمهورى خاضعًا لسيطرة أنماط جادة من الغرب الأوسط أمثال تافت حتى الخمسينيات. ومع ذلك فجولدواتر جاء من الغرب الناشئ الذى كان چورچ بوش يرتزق منه.[٥٣] كان جد جولدواتر، وهو مهاجر يهودى فقير، قد افتتح أول وأكبر متجر فى فينكس، وشهد جولدواتر المدينة الصحراوية تنمو من بلدة صغيرة لا يزيد تعداد سكانها عن ثلاثين ألف نسمة فى صباه إلى مدينة يبلغ تعداد سكانها ٨١٦ ألف نسمة فى سنة ١٩٣٦م، ثم إلى مليونين فى الثمانينيات. قال جولدواتر ذات مرة: «هنا فى الغرب والغرب الأوسط نحن لا نخاف مما قد يحدث. قطعًا هناك مخاطر، ولكننا

دائمًا نجازف». [٥٤] كان منبهرًا بالتقنية الجديدة. أقام وراء بيته فى أريزونا سارية علَم بارتفاع خمسة وعشرين قدمًا يتم التحكم فيه بآلية كهروضوئية. ومع بزوغ الفجر فى الصحراء ينشط الضوء محرك سارية العلم فيرتفع العلم إلى أعلى السارية؛ ومع الغروب ينزل العلم آليًا. [٥٥]

ووجد عضو مجلس الشيوخ معظم أنصاره الصاخبين فى المناطق المزدهرة بالغرب الأمريكى فى مدن أريزونا الصحراوية، فى الامتداد الهائل للوس أنچيليس وفى بلدات مقاطعة أورانچ. كان أهالى الغرب الأمريكى فرديين بطبيعتهم، كانوا أناس يعيشون فى بيوت من طابق واحد لا فى عمارات سكنية، يعتمدون على السيارات لا على وسائل النقل العامة (ولو أن كلمة «يعتمدون» ربما كانت لفظًا أضعف من أن يوصل توجهًا يقترب غالبًا من حافة العبادة). كانوا يشهدون كل يوم كيف «جعلت المبادرة الفردية الصحراء تزدهر» حسب تعبير جولدواتر. وكانوا يحكمون على الناس عادةً بما حققوا، لا من أين جاءوا. [٥٦]

ربط أهالى الغرب الأمريكى هذه الفردية الجريئة بمعارضة قوية لـ«المؤسسة الحاكمة». كثير من هؤلاء الناس انتقلوا غربًا هربًا من التجمعات الصغيرة الضيقة التى تدير عالم الأعمال على الساحل الشرقى والنقابات التى تتحكم فى حياة العمال والمديرين العرقيين الذين يديرون السياسة الحضرية. كانوا يبغضون استمرار النخبة على الساحل الشرقى فى ممارسة كم غير متكافئ من السلطة (مع الحكومة الاتحادية التى تمتلك أكثر من ٤٠ ٪ من أريزونا و٩٠ ٪ من آلاسكا). كانت الحيوية الاقتصادية تنتقل بسرعة بعيدًا عن النظام المؤسسى القديم: فانخفض سهم نيويورك من موارد البلاد المصرفية إلى النصف، من ٢٥ ٪ فى سنة ١٩٤٥ إلى ١٢,٥ ٪ فى سنة ١٩٦٤م. [٥٧] وفى تلك السنة كان «بانك أوف أمريكا» فى كاليفورنيا لا يقل من حيث الضخامة عن «تشيز مانهاتن» الذى يملكه آل روكفلر. ومع ذلك استمرت نخبة الساحل الشرقى فى تجاهل معظم البلاد. صرح روبرت سمايلى محافظ أيداهو الجمهورى إبان انتخابات ١٩٦٤م قائلاً: «هذه القارة تميل لكن أهالى الشرق الأمريكى لا يعترفون بذلك. أنتم مصابون بعقدة «الإفراط فى الطيران» ـ تظنون أن أول محطة بعد آيدلويلد [مطار چون إف. كنيدى حاليًا] هى لوس أنچيليس». [٥٨] فكيف لا يهللون حين احتج جولدواتر

على الترهل الحكومى؟ أو حين زعم أن البلاد ستكون «أفضل حالاً إذا نشرنا الساحل الشرقى بالمنشار وتركناه يهيم فى عرض البحر؟».

كان الغرب الأمريكى مرتعًا لكافة أنواع جماعات اليمين. وأنشأ المحافظون مكتبات «منتدى الحرية» لبيع كتب ذات عناوين براقة مثل « الشيوعى العارى: سادة الخداع» و«يمكنك أن تثق فى الشيوعيين (لتصبح شيوعيًا) جنبًا إلى جنب مع الكتاب المقدس وأعلام أمريكا. وكانوا يقيمون انتخابات لمجالس المدارس ويقدمون خدماتهم للحزب الجمهورى وينضمون لأية جمعية مناهضة للشيوعية، ويلتقون لمناقشة خاصة حول الشيوعية على الخريطة. وكانوا ينساقون للاستماع لخطباء اليمين من أمثال روبرت شولر، ذلك القس الغوغائى القادم من جنوب كاليفورنيا، والذى كان يحذر من أن منظمة «يونسكو» تعنى «الدمار الكامل لنمط الحياة الأمريكى والقضاء على الحرية الديمقراطية الفعلية» وفريد شوارتس، وهو واعظ من أستراليا تخلى عن مهنته كطبيب وكرس وقته كاملاً لإدارة حملته الصليبية المعادية للشيوعية. كما أنشأ شوارتس مدرسة لمعاداة الشيوعية، اجتذب فصل واحد عقد فيها فى ربيع ١٩٦١م أكثر من سبعة آلاف طالب، كثرة منهم أعطتهم مجالس إدارات المدارس المحلية إذنًا من دروسهم العادية.(٥٩)

لو كان ثم كتاب واحد اشتراه كل محافظ فى الغرب الأمريكى فهو «ضمير المحافظ ـ The Conscience of a Conservative». وفى انتخابات ١٩٦٤م، بيع من بيان جولدواتر الشخصى ٣,٥ مليون نسخة. ويقول فيه: «أنا لا آبه كثيرًا بالحكومة المنظمة أو بجعلها أكثر فعّالية، لأن هدفى خفض حجمها. لا يهمنى النهوض بإعانة البطالة، فأنا مهتم بتوسيع نطاق الحرية. هدفى لا أن أمرر قوانين، بل أن ألغيها». وبذل جولدواتر ما لم يبذله غيره من جهد حتى يجعل العداء للتمدد الحكومى جزءًا من نسيج الحركة الجمهورية الحديثة. ودعا للتخلص من مكتسبات الطبقة الوسطى الشعبية مدعيًا أن الإنفاق الحكومى على الخطط المحلية يجب خفضه بمعدل ١٠٪ سنويًا، وأيد الضريبة الموحدة. كل هذه كانت ألغامًا بالنسبة لمرشح رئاسى، لا سيما فى أواسط الستينيات.

كان هذا كله يشير مستقبلاً إلى الريجانية. وكان ريجان خطيبًا دائمًا فى مدرسة شوارتس لمعاداة الشيوعية، وكان من أولى مغامراته لاعتلاء المسرح القومى أن يرشح جولدواتر فى مؤتمر الحزب الجمهورى لسنة ١٩٦٤م فى سان فرانسيسكو. وحمل معه أفكاره هذه. وعلق چورچ ويل ذات مرة ساخرًا بقوله إن جولدواتر فاز فى النهاية فى انتخابات الرئاسة ـ فى سنة ١٩٨٠م.

وفى أيام جولدواتر، شرع اليمين فى التحالف كأقلية بالطبع، ولكنها، أقلية على قدر عال من التنظيم والتصميم. وفى سنة ١٩٦٠م، جذبت حملة نيكسون أقل من خمسين ألف متبرع فرد؛ بينما اجتذب جولدواتر ستمائة وخمسين ألفًا. ودخل جولدواتر انتخاباته المشؤومة ومعه ٣,٩ مليون متطوع حزبى، أى ضعف من تطوعوا للعمل مع چونسون.[٦٠] وكانت ملصقات مصدات السيارات المؤيدة لجولدواتر تفوق تلك المؤيدة لچونسون بنسبة ١٠ إلى ١. وبلغ الأمر أن تمكن أنصار جولدواتر فى بعض الحالات من يسكتوا نلسون روكفلر بالهتاف المعادى فى مؤتمر ١٩٦٤م، ولكنهم شكلوا تجمعًا من النشطاء أخذ يدفع بالحزب الجمهورى باتجاه اليمين. ورسخ جولدواتر الصلة بين القاعدة المحافظة والمثقفين المحافظين. فكتاب The Conscience of a Conservative الذى اشتُهر به جولدواتر، ألفه له برنت بوزل زوج أخت ويليام بكلى. وخطاب جولدواتر فى مؤتمر ١٩٦٤م الذى ادعى فيه أن «التطرف فى الدفاع عن الحرية ليس عيبًا» كتبه له هارى چاف، وهو أحد أوائل أنصار ليو شتراوس، والذى قدر له أن يصبح فيلسوف المحافظين الجدد الأثير. وأيدت مجلة ناشيونال ريڤيو ترشيحه بحماس، كما فعل بعض المحافظين المختلفين عنه من أمثال راسل كيرك وأين راند. وأحال ويليام بارودى «معهد الأعمال الأمريكى» إلى مجموعة استشارية لجولدواتر، وأقنع بعض المثقفين المحافظين من أمثال ميلتون فريدمان وروبرت بورك وويليام رينكويست وصاحب الاسم المشؤوم وارين ناتر بالاكتتاب فى جيش جولدواتر.

الانتخابات الحقة للخسارة

لم يحُل أى من هذا دون وقوع الكارثة الانتخابية فى نوفمبر ١٩٦٤م. ولم تكن

المشكلة فى جولدواتر وحده، ولو أنه كان مرشحًا سيئًا، بل فى آليات التمرد اليمينى كلها. فالعديد ممن يهلل لهم اليمين حاليًا بوصفهم عمالقة الفكر، كانوا مرفوضين آنذاك باعتبارهم أقزامًا غريبى الأطوار. كانت الأوساط الأرستقراطية تتعالى على «أولاد شيكاغو». رفض روبرت ليكاتشمان بما كان له من مكانة فى ذلك العهد «مدرسة شيكاغو» باعتبارها مجرد «جماعة زائفة».[٦١] ونجح بعض الاقتصاديين الكينزيين فى التأثير بهدف تطهير مكتبات الجامعات من كتاب «الرأسمالية والحرية».[٦٢] وقام كل من رولاند إيڤانز وروبرت نوڤاك اللذان كانا فى مستهل شراكتهما الصحفية بصوغ رأى رصين حين كتبا أن حملة جولدواتر كانت تديرها مجموعة من الأكاديميين والدعائيين المغمورين، تحالفت مع إحدى المؤسسات التعليمية الغامضة المعفاة من الضرائب بالعاصمة، تعرف باسم «معهد الأعمال الأمريكى لأبحاث السياسات العامة». بل إن بعضًا من أنصار جولدواتر الصرحاء أعربوا عن شك فى قدرة بطلهم على إدارة البلاد. فوجهت مجلة تايم السؤال لويليام بكلى: «ماذا يحدث لو انتخُب رئيسًا للولايات المتحدة؟» فأجاب بكلى قائلاً: «هذه ستكون مشكلة خطيرة».[٦٣]

كانت الحقيقة الواضحة أن الحركة لا تزال تضم أكثر من اللازم من غرباء الأطوار. قد تتهم «مدرسة شوارتس لمعاداة الشيوعية» بالحذر المفرط، لكن «جمعية چون بيرش» التى ازدهرت بمقاطعة أورنج بكاليفورنيا، كانت مصابة بحالة من عقدة الارتياب أكثر تقدمًا من حالة المكارثيين. تأسس التنظيم فى سنة ١٩٥٨م على يد روبرت ولش، وهو صانع حلوى متقاعد من ماساشوستس، وسماها على اسم مبشر پروتستانتى عسكرى متعصب قتله الشيوعيون الصينيون. أنشأ ولش الجمعية فى أثناء محاضرة ألقاها على مدار ثلاثة أيام فى إنديانابوليس، وأدارها بيد حديدية واستبداد مطلق. (كان للتنظيم مجلس إدارة، إلا أن الغرض الوحيد منه كان اختيار زعيم جديد فى حالة ما إذا تم اغتيال «المؤسس» على يد الشيوعيين.) وفى أوائل الستينيات، كانت تضم خمسة وعشرين ألف عضو، منهم فريد كوتش وهارى برادلى رجلى الصناعة اللذين أصبحا من كبار ممولى الحركة من المحافظين، والعديد من مسئولى المدينة، وچون روزلوت رئيس المؤتمر الحزبى لشباب الجمهوريين النيابيين.

كانت نظريات المؤامرة بمثابة الدم الذى يغذى جمعية چون بيرش بالحياة. فقرر ولش أن أيزنهاور «عميل واعٍ ومخلص للمؤامرة الشيوعية» وادعى أن هذا الاتهام قائم على «تراكم شواهد مفصلة على درجة من الكثرة والوضوح لا تدع مجالاً للشك فى الاقتناع بها». وشمل «المتآمرون» الآخرون آلن دالاس وچورچ مارشال، ومعهما نصف إجمالى سكان أمريكا على ما يبدو. ولم لا؟ وإلا فكيف لك أن تفسر خسران أمريكا الصين وكوريا الشمالية؟ أو لم علا نجم أجر هيس إلى هذا الحد؟ أو سُمح لكاسترو بالسيطرة على كوبا؟ أو لم واصلت الحكومة تمددها؟ وكشفت استطلاعات الرأى أن أكثر من ٥ ٪ من الأمريكيين يتفقون مع الجمعية بوجه عام، وهى نسبة كبيرة ولكنها لا تكفى لتكون قاعدة ثورة شعبية.[٦٤]

ومع ذلك، لم يكن العائق الرئيس أمام حركة المحافظين هذيان المتطرفين منهم بقدر ما كان نجاح الوضع الراهن. ضع جولدواتر وفريدمان وبكلى على منصة وستجد أقلية توافقهم على كل ما يقولون، لكن معظم المستمعين سيهزون أكتافهم فى دهشة. فماذا جرى لأمريكا؟ الاقتصاد كان مزدهرًا، والحكومة كانت تعمل على حل المشكلات الاجتماعية، والشيوعية كانت تحاصر فى الخارج. هذا الإيمان تزعزع فى السنوات القليلة التالية مع بدء خروج البلاد من دائرة السيطرة. وكان الراعى الآخر لحركة المحافظين الحديثة هو الرجل الذى هزم بارى جولدواتر ـ ليندون چونسون.

***

الفصل الثالث

حسرة الليبرالية

١٩٦٤-١٩٨٨م

أحيانًا يمكن لإشارة واحدة أن تنقل جوهر فلسفة كاملة. جاشت عواطف ليندون چونسون فى زيارته لمدينة پروڤدنس، رود آيلاند فى أثناء حملته الانتخابية عام ١٩٦٤م حتى أنه تسلق سطح سيارته وأمسك بوق على شكل قرن وزأر الزعيم الديمقراطى فى الحشد الهاتف قائلاً: «كل ما أريد هو أن أقول لكم أن لدينا الكثير مما نؤيده وأقل القليل مما نرفضه». (١)

فى أواسط الستينيات، كانت الليبرالية المؤيدة للتمدد الحكومى فى حالة انتصار. وظن أنصار الاقتصاد الكينزى أنهم اكتشفوا سر النمو الاقتصادى: كل ما عليك أن تفعله هو أن تقوم بتعديل بعض المؤشرات الاقتصادية فتجد العالم على الفور يواصل طريقه نحو الثراء. والأغرب أن بعض صناع السياسات ظنوا أن لديهم الدواء لكافة الأدواء الاجتماعية، من الفقر إلى التعصب. وكان معظم الأمريكيين لا يزالون يثقون فى قدرتهم على ذلك. بل إن جماعة من العلماء ممن تتحمل تكاليفهم «هيئة العلوم القومية» شرعت فى مشروع بحثى يهدف إلى التحكم فى المناخ. (٢)

كان چونسون مصممًا على لم شمل البلاد، فأراد أن ينهض بالوحدة الوطنية بالبناء على ثلاثين سنة من السياسات التقدمية الناجحة ومكافحة الفقر فى الداخل واحتواء الشيوعية فى الخارج. ولكن انتهى به الأمر بفعل عكس ذلك ـ فقسم البلاد ومزق التحالف الذى أقامه روزڤلت. وعندما غادر چونسون البيت الأبيض فى يناير ١٩٦٩م

سلم مفتاحه للجمهوريين. فتسلم محافظو الغرب الأمريكى ـ وبعضهم أكثر محافظة وغربية من غيرهم ـ البيت الأبيض لمدة عشرين سنة من السنوات الأربع والعشرين التالية.

كانت تلك الحقبة تموج بالاضطراب بالنسبة لليمين كغيره. وفى سنة ١٩٧٦م حين بدأ غبار فضيحة واترجيت يهدأ، تصور العديد من المحافظين أن الحزب الجمهورى مات لمدة جيل. ولكن كان اليمين يحرز تقدمًا فى معظم الفترة من ١٩٦٤ إلى ١٩٨٠م. وكانت هذه هى الفترة التى تحولت القاعدة الجماهيرية فيها فى الجنوب والغرب إلى جيش أكثر توحداً؛ حيث بدأ المثقفون فى صوغ السياسات، وواصلت التركيبة السكانية دفع أمريكا فى اتجاه جنوب غربى. واتحدت القوى الثلاث فى سنة ١٩٨٠م فى صورة رونالد ريجان ـ الرجل الذى كانت فلسفته نقيض فلسفة چونسون تمامًا: فالحكومة عنده هى المشكلة لا الحل.

تغيير الاتجاه بعيداً عن اليسار

فى سنة ١٩٦٥م، انطلق چونسون من حيث انتهى فى سنة ١٩٦٤م. فأضاف قانون حقوق التصويت إلى قانون الحقوق المدنية. وشن «حربًا شاملة على الفقر البشرى والبطالة فى هذه الولايات المتحدة». ووسع دور الحكومة الاتحادية فى التعليم (من خلال خطة التعليم قبل المدرسى) والثقافة (من خلال الوقف القومى للفنون والوقف القومى للعلوم الإنسانية) والرعاية الصحية (من خلال خطتى Medicare و Medicaid،) فتباهى چون مكورماك رئيس مجلس النواب قائلاً: «إنه مجلس الآمال التى أنجزت، إنه مجلس الأحلام التى تحققت». [٣] لا شك أن العديد من هذه الخطط الاجتماعية العظيمة كان محموداً، ولكن حتى أفضل السياسات يمكن أن تؤدى إلى نتائج غير مقصودة. فأوجدت السياسات آليات لنفسها وأفرزت إمبراطوريات بيروقراطية وأذكت غضب البيض. كما اجتذبت هذه الخطط الحزب الديمقراطى بعيداً عن جذوره الوسطية، وضاعفت حجم «تحالف المتبرمين» الذين صوتوا لصالح جولدواتر.

وسرعان ما اتسع جدول أعمال الحقوق المدنية الخاص بالديمقراطيين، من ضمان الحقوق الأساسية للمواطنين السود (كحق تكافؤ الفرص والتصويت) إلى إدخال تعديلات على المعالجة التفصيلية من المظالم التى لحقت بهم فى الماضى. فعلى سبيل المثال، كان المفترض فى «خطة العمل الاجتماعى» لجونسون أن تساعد الفقراء؛ حتى يساعدوا أنفسهم، إلا أنها فى التطبيق، عززت المظالم بتسليم السلطة فى المجتمعات الفقيرة لمعارضين محترفين من النوعية التى كان توم وولف يسخر منها فى سنة ١٩٧٠م فى « Mau Mauing the Flak Catchers »[٤](*) وأدى تنامى الراديكالية لدى الأقلية إلى زيادة توتر التحالف الديمقراطى، لا سيما حين غمرت أحداث الشغب مدن الشمال فى أواخر الستينيات. وبدا كأن نصف الحزب - الراديكاليون الحضريون والمثقفون والسود - يشعرون بأن هذا الاحتجاج كان مشروعًا، وأن الحل يكمن فى المزيد من النقد والمزيد من الخيارات. أما النصف الآخر - البيض الفقراء وسكان الضواحى - فضاقوا بانهيار النظام وتساءلوا عن سبب إيثار السود بمعاملة خاصة.

فى الوقت نفسه، اكتشف الديمقراطيون التقليديون مصدرًا آخر للاهتمام بالقضاء. إذ أعادت محكمة وارين(**) العليا صوغ القانون لتعطى حقوقًا لكافة الفئات التى كانت مستبعدة فيما سبق - لا السود وحسب، بل المرأة والشواذ والمعوقون والسجناء والمرضى العقليون، بل العاملون فى مجال الأفلام الإباحية أيضًا.[٥] ووجدت المحكمة أن المتهمين لهم الحق فى العديد من أوجه الحماية الدستورية، كالحق فى التزام الصمت والحق فى محاكمة سريعة، وكان هذا كله فى وقت كانت البلاد تشهد فيه تصاعد معدلات الجريمة. وحظرت المحكمة الصلاة فى المدارس العامة (فى سنة ١٩٦٢م)(***)، وحدت من سهولة إقامة دعاوى الفحش (فى سنة ١٩٦٢ ومرة أخرى فى سنة ١٩٦٤م)، وقننت بيع وسائل تنظيم الأسرة، بما فيها أقراص منع الحمل (فى سنة ١٩٦٥م) بفضل جهود إستيل جريزوالد وهى من أصدقاء بريسكوت بوش. وحظرت المحكمة برئاسة وارين برجر عقوبة الإعدام فى سنة ١٩٧٢م على أساس ما ينطوى عليه تطبيقها من «نزق وجنون». وكان الحكم الخاص بالإجهاض فى قضية

(*) عنوان كتاب، يبدو أنه يعنى اجتذاب المعارضين للانضمام لحركة ماو ماو.

(**) كبير القضاة وارين بيرجر.

(***) المقصود بذلك الحظر ألا يدعو موظف بالحكومة إلى أى دين، ولكن بالطبع يمكن لمن يريد من الطلبة أن يصلى.

«روى ضد ويد» فى سنة ١٩٧٣م، وعلى الرغم من خطورته، مجرد حلقة من سلسلة طويلة من الإجراءات التى أثارت حنق «تحالف المتبرمين».

وكان أكبر دواعى الحنق تجاه القضاء بالنسبة لكثير من شرائح الطبقة العمالية الأمريكية بالمدن الكبرى نقل الأطفال، بحكم المحكمة، إلى مدارسهم بالحافلات إلى خارج أحيائهم بهدف تحقيق الدمج العنصرى. وكان الحكم بمثابة صدمة لمعظم الناس العاديين بوصفه مجحفًا ويتسم بالنفاق فى آن؛ فهو مجحف لأن الأطفال أرغموا ضد إرادتهم على السفر لأميال بهدف تحقيق «التوازن العنصرى»؛ ويتسم بالنفاق لأن «النخب الليبرالية» التى أيدت هذه السياسة كانوا يلحقون أطفالهم بمدارس خاصة أو فى الضواحى. وعندما حاول السيناتور تد كنيدى أن يخطب فى حشد معاد لسياسة نقل الأطفال بالحافلات فى بوسطن فى سنة ١٩٧٤م، واجهه هتاف قام به حشد لأمريكيين من أصل أيرلندى وأجبروه على النزول وطاردوا «أسد الليبرالية» بالبيض والطماطم حين احتمى بالمبنى الاتحادى المسمى باسم أخيه، وهو ما عبر عنه كريستوفر لاش بقوله: «هذا كثير جدًا لكاميلوت».(٦)

وكان من النقاط المثيرة للشقاق أيضًا الحركة المناوئة للحرب. فكانت حرب ڤيتنام بالنسبة للعديد من النشطاء تمثل أكبر شرور العصر ـ وكانت الثقافة المضادة ملازمًا طبيعيًا للاحتجاج. إلا أن الحركة المناوئة للحرب كانت شيئًا بغيضًا فى نظر العديد من شرائح القاعدة الجماهيرية من الديمقراطيين. فما الذى يجمع بين العامل البسيط والهيپيز الذين يقضون وقتهم فى تعاطى المخدرات وتبديد أموال أهلهم؟ أو بالطلاب الذين يدنسون العلم الأمريكى؟ بل إن المعارضين للحرب ممن كان معظمهم يؤجل التحاقهم بالخدمة العسكرية بسبب الدراسة بدلاً من إرسالهم للقتال، كانوا موضع سخط عام أكبر من الحرب نفسها.(٧) كان كثير منهم لا يعادون سياسة أمريكية ما أو أخرى وحسب، بل يعادون أمريكا بوجه عام. ربما كان إطلاق النار على أربعة طلاب فى كنت فى مايو ١٩٧٠م مصدر إلهام أغنية نايل يونج، ولكن بعد ذلك بأسبوع، هلل عمال أمريكا فرحًا حين قامت مجموعة من اتحاد عمال البناء فى نيويورك بضرب مجموعة من المتظاهرين ضد الحرب.

كان أبرز رموز التمرد فى صفوف الحزب الديمقراطى محافظ ألاباما چورچ والاس. واجه مسعاه للحصول على ترشيح الديمقراطيين فى سنة ١٩٦٤م بالرفض

من جانب چونسون، ولكن بعد ذلك بأربع سنوات، رشح والاس نفسه مستقلاً معبراً عن أصوات البيض الساخطين فى كل مكان، سواء فى مدن الشمال أو فى ريف الجنوب. وكان رده على سؤال لأحد الصحافيين عن القضايا التى ستسود انتخابات ١٩٦٨م مؤشراً على ما كان يؤلم البيض الأمريكيين فى ذلك الوقت:

«المدارس ستكون من هذه القضايا. ففى خريف ١٩٦٨م سيبلغ حنق أهالى كليفلاند وشيكاغو وجارى وسانت لويس مداه بسبب التدخل الحكومى فى شئون مدارسهم المحلية، وسيكونون مستعدين للتصويت لصالح والاس بالآلاف. فالأهالى لا يحبون هذا العبث بأطفالهم وفرض المدرسين الذين يدرّسون بالمدارس ونقل الأولاد والبنات الصغار إلى الجانب الآخر من المدينة لمجرد تحقيق الدمج العنصرى... وإليك قضية أخرى ستشتعل فى ١٩٦٨م: القانون والنظام. الجريمة فى الشوارع. فالناس ضاقوا ذرعًا بمواقف ليندون چونسون المائعة ومن يحيط به من مثقفين ومنظرين مغفلين. ضاقوا ذرعًا بمحكمة عليا... إنها جماعة مؤسفة تافهة لا قيمة لها... الناس لم تعد تحتملها...»[٨]

وبالفعل وقف ١٣,٥ ٪ من «الناس» بجانب والاس فى انتخابات ١٩٦٨م، وسحبوا من أصوات الديمقراطيين وهيوبرت همفرى ما يكفى لفوز نيكسون. إلا أن الديمقراطيين استمروا فى الاتجاه يساراً. ففاز الليبراليون الراديكاليون بالمعركة حول روح الحزب الديمقراطى بسبب التغيرات الكبرى التى أدخلت على دستور الحزب لتمنح الأقليات ممثلين إضافيين. وبدأ ساسة الآلة الأيرلندية ومديرو النقابات ومحافظو الجنوب ممن سيطروا على الحزب لعشرات السنين فى الخسران أمام أنماط من الناس من نوع مختلف تمام الاختلاف: معارضون للحرب وأنصار الحركة النسائية ودعاة البيئة. واشتمل برنامج الديمقراطيين فى سنة ١٩٧٢م على خطط منفصلة لحقوق الفقراء والأمريكيين الأصليين [الهنود الحمر] والمعوقين بدنيًا والمتخلفين عقليًا والمسنين والمرأة والطفل وقدامى المحاربين. وركز البرنامج على إعادة الحقوق الدستورية للمدانين المطلق سراحهم أكثر من تركيزه على جهود مكافحة عنف الشوارع.[٩] وكان مؤتمر الديمقراطيين لسنة ١٩٧٢م، والذى تم فيه ترشيح چورچ ماكجفرن عالمًا غير العالم الذى أرسل چونسون للمعركة ضد جولدواتر فى سنة ١٩٦٤م. إذ مُسخ التوجه

الإصلاحى إلى توجه راديكالى تشوبه مسحة معادية لأمريكا. وكان أربعة أخماس الممثلين فى سنة ١٩٧٢م لم يسبق أن حضرت مؤتمرًا ديمقراطيًا. فعج المكان بشباب يافع (ممثلا أريزونا كانا دون الثامنة عشرة من العمر حين تم اختيارهما). وكان الحدث برمته ضربًا من الفوضى، فلم يتمكن المرشحون من ألقاء كلماتهم حتى الساعات الأولى من الصباح، مما حرم الحزب من جمهوره التليفزيونى. وعقدت بعض أهم الاجتماعات داخل غرف يملؤها الدخان، ولو أن الدخان كانت له فى هذه المرة رائحة مختلفة قليلاً.

انقسمت البلاد طوال تلك الفترة. ونشأت حالة من «التضخم المصحوب بركود اقتصادى» صدمت أنصار الاقتصاد الكينزى ممن ادعوا التمكن فى فن ضبط الاقتصاد لخفض كل من التضخم والبطالة. وبدأ معدل الجرائم الخطيرة الذى ظل ثابتًا طوال الخمسينيات فى الارتفاع بمعدل ٢٠ ٪ فى السنة فى أواسط الستينيات، وكانت نسبة غير متكافئة من هذه الجرائم ـ لا سيما جرائم العنف ـ يرتكبها زنوج. فزاد معدل اعتقال السود، بتهمة القتل مثلاً، بنسبة ١٣٠ ٪ فى الستينيات. وفى الوقت نفسه ارتفع تعداد مواليد النساء الزنجيات غير المتزوجات من ٦, ٢١ ٪ فى سنة ١٩٦١ إلى ٩, ٣٤ ٪ فى سنة ١٩٧٠م.[١٠] وبدت النخبة الليبرالية التى تختال ثقة بنفسها قبل سنوات قلائل بلا حول ولا قوة. لم يكن لديهم حل للتفكك الأسرى ـ سوى رواتب إعانة اجتماعية أكثر سخاء. ولم يكن لديهم حل لمشكلة ارتفاع معدلات الجريمة ـ غير مزيد من المال لإعادة التأهيل ودراسات العلوم الاجتماعية. وأخذ النظام السائد فى فقدان تأييد الجمهور. وفى سنة ١٩٦٥م بلغت نسبة السكان ممن كانوا يرون أن المحاكم تعامل المجرمين معاملة «قريبة من الصواب» أو «بخشونة زائدة» ٣٦ ٪؛ وفى سنة ١٩٧٧م هوت هذه النسبة إلى ١١ ٪.[١١]

والأسوأ من وجهة نظر العديد من المحافظين، أن النخبة المثقفة كان يسعدها أن تطلق العنان لهذه الفوضى. وفى أغسطس ١٩٦٧م، طبعت مجلة «New York Review of Books» تعليمات على غلافها تعلم قراءها كيف يصنعون كوكتيل مولوتوف. وفى سنة ١٩٧٠م، دعا ليونارد برنستاين زعماء جماعة «الفهود السوداء» للعشاء. وتحولت هولى وود أيضًا جهة اليسار. ففى سنة ١٩٦٥م، كانت جائزة أوسكار أحسن فيلم من نصيب The Sound of Music[١٢]؛ وفى سنة ١٩٦٩م،

كانت من نصيب Midnight Cowboy وفى فيلم Shampoo الذى بدأ عرضه فى سنة ١٩٧٥م، ولكن كانت أحداثه تدور ليلة انتخابات ١٩٦٨م، يضاجع البطل - قام بدوره وارين بيتى - صديقته، وصديقة صديقته، وعشيقة زوج صديقته، وابنة زوجة العشيق، ما اعتبره مايكل إليوت «سلوكًا غير رائع». [١٣]

وفجأة بدأت تتردد أصداء رسالة المحافظين بأن الحكومة هى المشكلة لا الحل. وكان ٦٢٪ من الأمريكيين فى سنة ١٩٦٢م يعتبرون أن حكومة واشنطن تتخذ القرار السليم فى معظم الحالات. وانخفض هذا الرقم ذلك الوقت بشكل كبير ليصل إلى ١٩٪. [١٤]

الفجر الكاذب: ريتشارد نيكسون

كان الرجل الذى أحال هذا السخط الفوضوى أصواتًا لصالح الجمهوريين بطلاً عند العديد من أنصار اليمين. كان ريتشارد نيكسون صاحب تاريخ طويل فى معاداة الشيوعية، سواء على الجانب المشرف (لعب دورًا رائدًا فى فضح أكاذيب ألجر هيس) أو على الجانب غير المشرف (شن حملة بمجلس الشيوخ فى كاليفورنيا فى سنة ١٩٥٠م ضد هيلين جاهاجن دوجلاس الممثلة التى صارت عضوًا بالمجلس متهمًا إياها «بأنها قرنفلية تمامًا حتى ملابسها الداخلية(*)»). ولقى نيكسون ترحيبًا شديدًا من «حزام الشمس» مثل جولدواتر، ولم يكن يخفى بغضه للنظام على الساحل الشرقى. وظل طوال حياته العملية يعزز مكانة المحافظين. وكان يزعم أنه من المعجبين بأفكار راسل كيرك[١٥] ولم يكن يخفى ميله لكثير من توجهات أنصار جون بيرش والمكارثيين. وورد عنه أنه قال بعد أن أدى انتخاب أيزنهاور إلى خلع دين أتشيسن من وزارة الخارجية: «أليس رائعًا أن يصبح لدينا أخيرًا وزير خارجية يجلس فى صفنا؟». [١٦]

وشن نيكسون حملته كمحافظ، بل كمحافظ قادر على تسخير الروح الشعبية لصالح قضيته. وقبل نيكسون كانت حركات التمرد الشعبية التى تحرض الأغلبية المنسية على النخبة تتخذ عادةً شكل عقوبات اقتصادية ضد الأثرياء. وكانت عبقرية نيكسون

(*) وصف سياسى باللون القرنفلى فيه شىء من الازدراء، سواء كان الموصف تبنيًا أو يساريًا. وقد أطلق نيكسون على هيلين دوجلاس: Pink Lady - قاموس بريور السياسى، صفحة ٤٥٨.

تكمن فى استثارة تمرد جورج والاس فى الحزب الديمقراطى وتوجيه الروح الشعبية ضد النخب المثقفة: ضد من كان نيكسون يعتبرهم متعالين عاجزين ممن يسيطرون على مؤسسات كجامعة هارفارد وصحيفة واشنطن بوست. وكان نيكسون صدى لصوت والاس فى إضفاء معنى ازدرائى جديد على كلمة «ليبرالى» التى كانت فى قاموس نيكسون تعنى النخبوى المدلل الذى يولى اهتمامه لأى إنسان عدا الأمريكيين البيض الشرفاء الكادحين.

ولم يكن نيكسون يمل استغلال القضايا الثقافية لدق الإسافين بين طبقة العمال الديمقراطيين وحزبهم الذى يزداد جنوحًا نحو الليبرالية. كان التحريض على الليبرالية شغل نيكسون الشاغل، إذ كان هناك شىء ما يعتمل فى عقل هذا الناقم القادم من كاليفورنيا الذى أصاب الليبراليين بنوبة غضب (والعكس). فجند بات بوكانان الشاب لإثارة التعصب الشعبى، وكان يشجع نائبه سبيرو أجنيو على تقريع «الليبراليين الراديكاليين» و «المتحذلقين الرافضين». وكان نيكسون أول رئيس جمهورى يفوز بأغلبية أصوات الطبقة العاملة والكاثوليك ونقابات التجاريين.

وفى سنة ١٩٦٨م، أعطى الرئيس المنتخب الجديد بعض الأمل للمحافظين، إذ عين بعض كبار المحافظين فى إدارته: أرثر برنز لمجلس الاحتياطى الاتحادى، وارين نتر لوزارة الدفاع، ومارتن أندرسن (مؤلف كتاب The Federal Bulldozer وفيما بعد ذراع ريجان الأيمن) رئيسًا لموظفى البيت الأبيض. حتى ويليام بكلى تم تعيينه (ولو فى لجنة استشارية بهيئة الاستخبارات الأمريكية).

ولكن كان هناك أكثر من ريتشارد نيكسون واحد، فإذا كان هذا القادم من كاليفورنيا قد شن حملته الانتخابية كمحافظ، فإنه أدار دفة الحكم كليبرالى. فأولى اثنين من أهم المناصب فى إدارته لأساتذة من هارفارد على صلة وثيقة بجمهوريى روكفلر وديمقراطيى كنيدى، وهما هنرى كيسنجر ودانييل پاتريك موينيهان، وكان يباهى بأن حكومته أقل محافظة من حكومة أيزنهاور.[١٧] وكان نيكسون يشارك آيك فى نزعته الدولية وإيمانه بأن مهمة الجمهوريين أن تدير «الصفقة الجديدة» بشكل أفضل من الديمقراطيين، ولكنه اتخذ من القضايا الاجتماعية موقفًا أكثر ليبرالية. فكان اهتمامه بحقوق السود يفوق اهتمام أيزنهاور الذى كان يبدو أنه يرى ضرورة أن يقنع

السود بمواطنة من الدرجة الثانية. وكان نيكسون أول رئيس يعتنق العمل الإيجابى ليشمل المرأة والسود. وحقق كل من الإنفاق الاتحادى والتشريع الاتحادى فى ظل إدارة نيكسون نموًا أسرع مما حققا فى عهد چونسون. ففاق الإنفاق الاجتماعى نظيره الدفاعى لأول مرة. وزاد عدد صفحات «السجل الاتحادى» (قائمة باللوائح والقوانين الاتحادية) بنسبة ١٢١ ٪ فى عهد نيكسون مقارنة بما لا يزيد عن ١٩ ٪ فى عهد چونسون. وكان قانون «الهواء النظيف» لسنة ١٩٧٠م أكبر إجراء بيئى طموح تم اتخاذه حتى ذلك الوقت. وبعد سنة، دعا الرئيس للتصديق على خطة تأمين صحى قومية شاملة. وظل لفترة متحمسًا لتوفير حد أدنى من الدخل السنوى لكافة الأمريكيين. وصاح أحد الديمقراطيين قائلاً: «المحافظون أمة أقوال أما نحن فأمة أفعال». (١٨)

كان كثير من هذه الأشياء يلقى قبولاً حسنًا لدى عامة الأمريكيين، أما بالنسبة لمثقفى اليمين فكان كارثة. فتذمر المتشددون من أن هنرى كيسنجر كان يمارس ضربًا من السياسة الواقعية جرد السياسة الخارجية من أى مضمون خلقى. فما اعتبره العالم خروجًا أمريكيًا سلسًا من ورطة ڤيتنام وإبرام اتفاق مع الصين، كانوا يرونه استرضاء. وفى الداخل، استحدث نيكسون كمًا من الهيئات الحكومية أمضى المحافظون معظم العقدين التاليين فى محاولة التخلص منه، ومنها «هيئة حماية البيئة» و «إدارة الأمن والصحة الوظيفية». وكان مما أثار حفيظة المحافظين أكثر من غيره استحداثه «مجلس تكاليف المعيشة» فى الأعوام ٧١ ـ ١٩٧٣م فى محاولة للسيطرة على الأسعار والأجور، فيما اعتبر أكبر محاولة أمريكية لتبنى سيطرة الدولة على الاقتصاد منذ الحرب العالمية الثانية. (كان الرجل الذى عينه نيكسون لتولى هذه المغامرة الدون كيشوتية هو دونالد رامسفيلد، الذى كان حينئذ فى أواسط العمر.) وفى ٢٦ يوليه ١٩٧١م، أعلن عدد من كبار المحافظين منهم ويليام بكلى وچيمز بورنام «تعليق تأييدهم» للإدارة. (١٩)

وسرعان ما انزلق المحافظون الذين ظلوا مع الرئيس فى ورطة واترجيت. وبددوا كمًا هائلاً من رصيدهم السياسى فى دفاعهم عما لا يمكن الدفاع عنه. وكما فعل چون مكارثى قبل عقدين من السنين، استحضر نيكسون أسوأ ما فى حركة المحافظين، ألا وهو عقدة الاضطهاد والرثاء للذات، واستحواذ فكرة التآمر وبغضها للمؤسسة الحاكمة

لا لسبب سوى أنها المؤسسة الحاكمة(*). وأرهق كاهل اليمين بسمعة لازمته بالترخص الخلقي والاحتيال كلفه التخلص منها سنوات. وفيم كان كل هذا؟ لم يكن نيكسون مذنبًا بخرقه القانون وحسب، بل كان فيما يتصل بالسياسات، يتخذ الجانب الليبرالي أكثر مما كان على الجانب المحافظ.

وتركت استقالة نيكسون في سنة ١٩٧٤م حركة المحافظين في حالة دمار. وكان خليفته چيرالد فورد جمهوريًا وسطيًا - أو بالأحرى «أيزنهاور بدون نياشين». أثار فورد حفيظة اليمين بتعيينه خصم جولدواتر القديم نلسون روكفلر نائبًا له. (كتب ريتشارد ڤيجيري ملك الرسائل البريدية المباشرة المحافظ قائلاً: «ما كنتُ لأنزعج لو كان اختار تيدي كنيدي. فسارعت إلى الهاتف ودعوت حوالي أربعة عشر صديقًا محافظًا للعشاء لكي نتشاور حول طريقة يمكننا بها أن نوقف روكفلر».)[٢٠] وزادت بتي زوجة فورد من غضب المحافظين بتأييدها المعلن للإجهاض. وساند اليمين دعوة رونالد ريجان الصفيقة لاغتصاب ترشيح الجمهوريين من فورد في سنة ١٩٧٦م - وسرعان ما وجه إليه اللوم بعد أن خسر فورد بهامش ضئيل جدًا أمام چيمي كارتر.

وحتى لو كان فورد أكثر تعاطفًا مع «الحركة»، فما كان في موقف يمكنه من تغذيتها. إذ كانت مهمته أن يقيل البلاد من عثرتها في أعقاب صدمة واترجيت. وهبطت نسبة الناخبين الذين يعتبرون أنفسهم جمهوريين في سنة ١٩٧٤م إلى ٢٠٪.[٢١] فكان معظم الأمريكيين يعتبرون الحزب الجمهوري غير جدير بالثقة وعاجزًا ومتحالفًا بشكل وثيق مع كبار رجال الأعمال.[٢٢] وحين طُلب من الناخبين ذكر أي شيء إيجابي في الحزب، لم يجد الثلثان ردًا.[٢٣] ونشرت «اللجنة القومية الجمهورية» إعلانات تتساءل فيها بشكل يائس: «ومتى كان من السهل على المرء أن يكون جمهوريًا؟»[٢٤]. ورأى بعض أنصار اليمين ضرورة ترك الحزب الجمهوري والانضمام لأدوات سياسية أخرى - ربما حزب جديد، حتى إن كان الحزب الديمقراطي. وتنبأ ڤيجيري بأنه «في غضون عشر سنوات، لن يكون في البلاد دستة يصفون أنفسهم بالجمهوريين».[٢٥]

(*) برغم أنه الرئيس للمؤسسة.

كيف استطاع اليمين انتاج رئاسة رونالد ريجان من كارثة كهذه؟ الإجابة مرة أخرى يمكن العثور على جزء منها فى نقاط ضعف خصومها: إذ انخفضت شعبية چيمى كارتر بمقدار ثلاث نقاط حتى عن شعبية نيكسون عشية استقالته. ولكن كانت لها صلة أكبر بالانتكاسة التى منيت بها الليبرالية - وبعزم قطاع كبير من المحافظين على تحويل هذه الانتكاسة إلى حركة قوية. وكانت القاعدة الجماهيرية والمثقفون فى مستهل حركة توحد.

أتاحت تجاوزات اليسار فى الستينيات والسبعينيات فرصة ذهبية بالنسبة للمثقفين من كل اتجاه. فكانت مجلة ناشيونال ريڤيو التى أصدرها بكلى تبدو ذات بصيرة ولم تكن خارج المسار. واجتذبت أفكار ميلتون فريدمان التى كانت تتسم بالراديكالية جمهورًا متزايدًا من المعجبين. ومن السبعينيات فصاعدًا، أحرز خبراء الاقتصاد من خريجى جامعة شيكاغو عددًا من جوائز نوبل يفوق ما أحرز الاقتصاديون من خريجى غيرها من المعاهد (ولو أن البلد الوحيد الذى بدا مستعدًا لتطبيق أفكارهم هوشيلى المنبوذة دوليًا). ومع ذلك فأهم تغيير طرأ على اليمين المثقف كان انشقاق جماعة من المثقفين الليبراليين ممن كانت الستينيات نقطة تحول بالنسبة لهم.

نشأ المحافظون الجدد من قلب أمريكا الديمقراطية. وكان معظمهم يعيشون فى نيويورك أو بوسطن، ويرتزقون من البحث العلمى. ولكنهم لم يكونوا من خريجى هارڤارد التقليديين من ذوى الدم الأزرق. بل كان معظمهم يهودًا، وكلهم تقريبًا من أبناء المهاجرين؛ نشأ بعضهم فى بيوت يتحدث أهلها لغة اليديش بقدر ما يتحدثون الإنجليزية. وكان أعضاء الجماعة الأساسيون - إيرڤنج كريستول ودانييل بل وسيمور مارتن ليپست وناتان جليزر - من خريجى كلية سيتى بنيويورك فى الثلاثينيات، فى عهد كانت الكلية تقدم فيه تعليمًا متميزًا لأهالى نيويورك الذين كانوا أفقر وأكثر يهودية من أن يتعلموا فى «جامعات الصفوة - Ivy League». وكان المحافظون الجدد حداثيين إلى أبعد حد. فلم يقضوا وقتهم يعبرون عن الحنين لأمجاد المسيحية الوسطى الغابرة أو رأسمالية القرن التاسع عشر أو الجنوب القديم،[٢٦] بل كان معظمهم ماركسيين من نوع أو آخر فى عهد شبابهم. ولكن حين شبوا عن الطوق، اعتنقوا الليبرالية على الطراز القديم - ليبرالية قيم الكفاءة والصفوة، وإجلال الثقافة الرفيعة والاقتصاد

المختلط النشط. وكانت خيانة اليسار لهذه الليبرالية (كما كانوا يرونها) هى التى حولتهم إلى محافظين جدد.

كان المحافظون الجدد يبغضون ما يحدث فى جامعات أمريكا، تلك المعاهد العلمية التى انتشلتهم من حارات اليهود (الجيتو). كيف يقف كبار كهنة معابد العقل بأمريكا مكتوفى الأيدى بينما يدنس الطلبة قدسية الجامعة؟ كيف يمكن لمن يفترض فيهم أن يعنوا بالمعايير العقلية أن يوافقوا على إدخال نظام الحصص والأنصبة؟ لا ضير من انتقاد الحرب فى ڤييتنام، ولكن كيف يجرؤ هؤلاء المدللون بكل ما لهم من امتيازات أن يحرقوا علم أمريكا؟ كيف يقولون إن أمريكا دائمًا على خطأ ونقادها دائمًا على حق؟ كان أقل قدر من معاداة أمريكا يغضب مَنْ لم ينقذ عائلاتهم من المحرقة سوى هجرتهم إلى أمريكا.

قدم هؤلاء المفكرون عونًا هائلاً لليمين. بدايةً كانوا شخصيات عالمية. فكان نورمان پودهوريتز تحت رعاية ليونل تريلينج، وتتلمذ على إ ف. آر. ليڤيز فى كيمبريدج بين ١٩٥٠ و١٩٥٢م. وعاش كريستول فى لندن من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٨م؛ حيث شارك فى تحرير مجلة Encounter وأرسل ابنه بل إلى الليسيه الفرنسية.[٢٧] وكان المحافظون الجدد يتكلمون لغة العلوم الاجتماعية. ولطالما أصر المحافظون على أن الخطط الحكومية تضعف روابط المجتمع الطبيعية دون أن يتمكنوا من إثبات دعواهم. وأوضح المحافظون الجدد أن المشكلات الاجتماعية أصعب على الفهم مما يبدو، وأن الهندسة الاجتماعية «للمجتمع العظيم» لها عواقب سيئة. وإعانة البطالة يمكن أن تعزز الاعتمادية والكسل. والمعاملة التفضيلية قد تضر بالمستفيدين منها بحمايتهم عن التنافس. والحماس المفرط للمساواة قد يقوض دعائم مؤسسات تعليمية ككلية سيتى بنيويورك ويحد من الحراك الاجتماعى. وكان المحافظون الجدد يشهرون باليمين ويشوهون سمعة الحكومة كما شوه المشهرون الأصليون بالبارونات اللصوص.

كما كان المحافظون الجدد يركزون على أهمية المؤسسات غير الرسمية التى يهملها سائر الباحثين فى العلوم الاجتماعية. ففى ١٩٦٥م، أحدث موظف شاب بوزارة العمل يدعى دانييل پاتريك موينيهان ضجة حول بحث ـ أطلق عليه على الفور اسم «تقرير موينيهان» مع أن اسمه لم يظهر على الوثيقة الأصلية ـ يرى أن مشكلات الفقراء السود الحضريين سببها الأكبر انهيار الأسرة الزنجية.[٢٨] وبين محافظون جدد

آخرون أن «الجماعات الصغيرة» فى أى مجتمع ـ مؤسساته التطوعية ـ أهم كثيرًا لسلامته من الخطط الحكومية الطموحة. وحذروا من أن الفوضى تمثل خطرًا أكبر كثيرًا على سلامة المجتمع مما يتصور الليبراليون المتساهلون. أى أنهم باختصار عبروا عن الرؤى المحافظة التقليدية بلغة العلوم الاجتماعية.

ولم يكن المحافظون الجدد بحاجة لأن يخرجوا فائزين فى كل مناقشة. فبمجرد التعبير عن آرائهم المعارضة كانوا يحدثون خرقًا فى ادعاء النظام الليبرالى احتكار المعرفة.[٢٩] كان الليبراليون حتى ذلك الوقت يحظون بأهم مورد يمكن أن يتوفر لصناع السياسات، ألا وهو الانطباع بأنهم يمثلون الحكمة العلمية الموضوعية. فكانوا يقولون «هذا ليس مجرد رأى من عندنا»، وينهون كلامهم بعبارة: «هذا هو الرأى العلمى السليم».

كما أضاف المحافظون الجدد حدًا قاطعًا لنقد اليمين للسياسة الخارجية الليبرالية. ومن هذه المحفزات تزايد عداء الأمم المتحدة لإسرائيل (لا سيما بعد احتلالها الأراضى الفلسطينية عقب حرب ١٩٦٧م). كما ازدادوا اقتناعًا بأن الولايات المتحدة على وشك أن تخسر الحرب الباردة. فتم تصوير الحد من التسلح على أنه تساهل واسترضاء؛ وأن الاتحاد السوفييتى يحرز انتصارًا للشيوعية فى ڤييتنام؛ وأن النظام الأمريكى أصابه الشلل بسبب «أعراض ڤييتنام»؛ وإذا خففت مجلة ناشيونال ريڤيو من قبضة أنصار العزلة عن اليمين، كان المحافظون الجدد يساعدون على دفع الحركة نحو المعسكر المؤيد للنزعة الدولية.

وكان للموقف الأخلاقى من السياسة الخارجية أب روحى فكرى. فإلى جانب تركيزهم على العلوم الاجتماعية، كان المحافظون الجدد يمعنون النظر فى آراء أحد أهم المفكرين السياسيين فى حقبة ما بعد الحرب. كان ليو شتراوس اختيارًا غريبًا للمحافظين الجدد. إذ كان فيلسوفًا سياسيًا نخبويًا لا يهتم بتفاصيل السياسة الاجتماعية وقضى حياته العملية فى جامعة شيكاغو، وليس فى عالم المحافظين الجدد فى بوسطن ونيويورك وواشنطن. إلا أن تأثير شتراوس يصعب المبالغة فيه. فإلى جانب ليونل تريلنج، كان المؤثر الفكرى الرئيس على كريستول، الذى نسب الفضل إلى شتراوس فى تقديمه «سياسة لا مثالية»، وهى سياسة تعينك على التعامل مع العالم كما هو بدلاً من ابتداع مثال نظرى.[٣٠]

فند شتراوس بعضًا من أكثر الافتراضات شيوعًا فى أمريكا عن التقدم والديمقراطية وحكمة رجل الشارع البسيط. فكان يرفض الاعتقاد بأن التنوير حسَّن الظروف الإنسانية؛ بل كان يصر على أن الازدهار الرئيسى فى الفكر العظيم كان لدى الإغريق القدماء. وكان يحث تلاميذه على قضاء حياتهم منكبين على نصوص الأقدمين العظيمة ـ لا سيما كتابات أفلاطون وأرسطو؛ فهذا من شأنه أن يسمح لهم بالنظر إلى الدنيا من خلال الطرف الآخر من التلسكوپ ـ لا كما ينظر المحدثون إلى الأقدمين من علٍ، بل الأقدمين (إن دُرسوا بجدية) هم الذين ينظرون من علٍ إلى المحدثين.

وكان شتراوس يصر على أن إنقاذ الديمقراطية من أكثر توجهاتها تدميرًا تقوم به نخبة متعلمة تستطيع أن تقود الجماهير. فكانت «الإشتراوسية» حسب قول ميلتون هيملفارب أخو زوجة كريستول «دعوة للانضمام للقلة المتميزة التى خرجت من الكهف لتحدق فى الشمس بأعين مجردة، بينما لا تزال تفكر فى غيرها ممن لايزالون بأسفل فى الظلام». [٣١] ونظرًا لأن شتراوس لم يكن على اتصال بالموجة الليبرالية فى الأخلاق النسبية، فإنه كان يستعمل كلمات زالت منذ أمد بعيد من قاموس الخطاب الثقافى ومنها «طيب» و «شرير» و «فضيلة» و «فساد». وكان يرى أن معيار سلامة المجتمع ليس كم الحرية الذى ينعم به أفراده (هوس يتملك أنصار مبادئ الحرية من أمثال هايك)، بل مدى تمسك مواطنيه بالفضيلة. وهكذا عزز شتراوس اقتناع المحافظين الجدد المتنامى بأن مشكلة أمريكا لم تكن تكمن فى غياب الحرية الفردية، بل فى تداعى الفضيلة الفردية.

قد يبدو هذا شبيهًا بعقيدة ويليام بكلى، إلا أن «الإشتراوسيين» كانوا يعزون الفضل فى نزعتهم السلفية إلى أثينا لا روما، إذا كانت نزعة بكلى المحافظة تقوم على عقيدته الكاثوليكية؛ أما «الإشتراوسيين» فعقيدتهم تقوم على الفلسفة القديمة. كانوا لا أدريين فيما يتصل بالإيمان الدينى، ولكن يؤمنون بأن الدين يعين على الارتقاء بالتماسك الاجتماعى والفضيلة الاجتماعية. كانت كتاباتهم تتخللها إشارات إلى «الأساطير النبيلة». فقد لا يكون الدين عندهم حقيقيًا، لكنه يخدم هدفًا اجتماعيًا مفيدًا يحفظ نظام المجتمع.

ساعد هذا الاستعداد لتقبل «الأساطير النبيلة» طالما أنها تخدم قضيتهم، على تكوين سمعة للمحافظين الجدد كمكيافيليين يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة. ولكن هل كانوا فعلاً على هذه الدرجة من التنظيم؟ هناك ولا شك قدر من الخطر فى التلميح بوجود قدر من التماسك لم يكن له وجود بين مؤسسى الحركة. ففى الستينيات، كان معظمهم لا يزالون ديمقراطيين؛ وكان موينيهان على وشك أن يصبح عضواً ديمقراطيًا بمجلس الشيوخ عن نيويورك. ومن ناحية أخرى، كانت من سمات المحافظين الجدد قدرتهم على بناء شبكة من المؤسسات تبقى على رسالة المحافظين حية فى عالم فكرى ليبرالى إلى حد بعيد. إذ استحدثوا مؤسسات وأفرخوا هيئات وأنشؤوا مجلات. فسعت Public Interest، وهى مجلة ربع سنوية بدأت فى الصدور فى أبريل ١٩٦٥م، إلى تقديم جرعة ثقيلة من «علاج الواقع» لـ«المجتمع العظيم»(*)، وتحت رئاسة تحرير نورمان بودهوريتز، زخرت Commentary، وهى صحيفة شهرية أصدرتها «اللجنة اليهودية الأمريكية»، بمقالات ذات عناوين مثل «حدود السياسة الاجتماعية» و«الليبرالية فى مقابل التعليم الليبرالى» و«النمو وأعداؤه».

وكان الرجل الذى فعل الكثير ليحيل حركة المحافظين الجدد من موجة إلى حركة هو إيرفنج كريستول. كان كريستول تروتسكيًا فى شبابه بكلية سيتى، وبدأ ينتقل تدريجيًا نحو اليمين فى سنة ١٩٤٢م (حين كان فى الجيش) ولم يتوقف. واشتملت حياته العملية على عمل محدد كمحرر مشارك لمجلة Encounter، ثم كبير محررين فى Basic Books ودور محورى فى تأسيس كل من Public Interest ثم بعد ذلك بجيل National Interest التى كانت تركز على الشئون الخارجية. واجتمع فى شخص كريستول العقل الحاد وروح المرح الساخرة (وصف الليبرالى ذات مرة بأنه من يتصور ألا ضير فى أن تمثل فتاة فى الثامنة عشرة دورًا فى فيلم إباحى طالما روعى دفع الحد الأدنى من الأجور لها) وكان بارعًا فى حشد الآراء وبناء التنظيمات. وأقام علاقات وطيدة مع متبرعين أثرياء من أمثال ويليام سايمون وزير خزانة نيكسون وأصبح مولاً مهمًا للمنح والبعثات؛ حتى أن رفاقه المحافظين كانوا يسمونه «الأب الروحى». وأطلق جود وانيسكى وهو (اقتصادى من أنصار نظرية خفض الضرائب لزيادة

(*) «المجتمع العظيم» هو المجتمع الذى أراد الرئيس ليندون جونسون بناءه. وأعلن ذلك فى خطاب له عام ١٩٦٤م.

الاستثمار وبالتالى زيادة دخل الخزانة) على كريستول اسم «اليد الخفية» لحركة المحافظين.

منتديات الفكر والمانحون

من الأماكن التى كان المحافظون الجدد وسائر المحافظين يتجمعون فيها «معهد الأعمال الأمريكى (AEI)» لويليام بارودى. إلا أن بارودى كان قد مر بعدة عقبات فى طريق تحقيق حلمه بتحويل معهده إلى بيت فكر لحركة المحافظين. وكان تأييده لجولدواتر جلب عليه (بوكزة خفيفة من الديمقراطيين فى مجلس النواب) تحقيقًا أجرته مصلحة الضرائب فى سبب إعفاء المعهد من الضرائب. وجاء وقت أنتج فيه أعضاء معهد بارودى تحليلات موضوعية تمامًا لمشروعات القوانين المقدمة لمجلس النواب، وكان يعتبر تجنيد أكبر عدد ممكن من الديمقراطيين أمرًا ضروريًا. فكان تعيين ديمقراطى سابق مثل إيرفنج كريستول أو چان كركپاتريك يضفى ملمحًا من الحيدة على المعهد.

ومع انتهاء عقد السبعينيات، اقترب «معهد الأعمال الأمريكى» من تحقيق حلم بارودى. حصل على مكانته الرفيعة ـ فى جزء منها ـ من إدراك أن أفكاره قد تكون مفيدة. ففى الستينيات، كان اقتصاديو المعهد المتحمسين للحد من القوانين اعتُبروا فوضويين غير مسئولين، ولكن فى أواخر السبعينيات حتى إدارة كارتر أصبحت تحد من القوانين فى مجال صناعة النقل. وارتفع دخل «معهد الأعمال الأمريكى» من تسعمائة ألف دولار فى سنة ١٩٦٠م (أقل من خمس دخل مؤسسة بروكنجز) إلى ٩,٧ مليون دولار فى سنة ١٩٨٠م (أكبر من دخل بروكنجز بنصف مليون دولار). وفى أواخر السبعينيات، كان المعهد يضم خمسة وأربعين باحثًا دائمًا وعددًا أكبر من الباحثين المساعدين بمختلف الجامعات، وأربعة صحف، وله برنامج تليفزيونى شهرى. بل إنه بلغ من الضخامة حد أن قدم منحًا باسم چيرالد فورد وآرثر پيرنز (رئيس الاحتياطى الاتحادى الأسبق). إلا أن بارودى، وللأسف، لم يعش ليرى معهده منتدى فكر تستعين به إدارة محافظة، إذ وافته المنية فى سنة ١٩٨٠م بعد أن نقل إدارة مركزه إلى ابنه ويليام قبل ذلك بسنتين (على الرغم من حبه الشديد لتنافسية السوق المفتوحة يبدو أن الشيخ كان يغمض عينيه عن المحسوبية). وكان من دلائل نجاحه أن أقام من كل من فورد وريجان عشاءً تذكاريًا تكريمًا له.

لم يعد المعهد فى ذلك الوقت وحده فى الدوائر المحافظة. إذ فتحت مؤسسة «هيريتدج» أبوابها فى سنة ١٩٧٣م، وكانت أقل صخبًا من المعهد ولا تدعى كونها «جامعة بلا طلاب»، بل كانت «هيريتدج» هيئة للمناصرة، أو جماعة ضغط واسعة الاطلاع تعمل من أجل تغيير السياسات. وكان القادم الجديد «معهد كاتو» المؤيد لمبادئ الحرية، خاصة فى الفكر والعمل (libertarian) الذى تأسس فى سنة ١٩٧٧م فى سان فرانسيسكو، ثم انتقل إلى واشنطن العاصمة فى سنة ١٩٨٢م، وكان وسطًا بين «معهد الأعمال الأمريكى» و «هيريتدج»، وقام بنشر كتب كبرى ونظم دورات للطلاب، ولكنه فى الوقت نفسه تبنى فكرة «هيريتدج» بإجراء أبحاث سياسية قصيرة.

يرجع الفضل فى هذه الشبكة الجديدة من المفكرين لخمسة متبرعين خيرين من رجال أعمال، دفعهم انحراف البلاد نحو اليسار إلى العزم على بناء نظام محافظ مضاد يعود بها إلى اليمين. كان أول رعاة هذه النهضة المحافظة هو چوزيف كورس وريث شركة لصناعة الجعة، تبرع بمائتين وخمسين ألف دولار لمؤسسة «هيريتدج»، كما أسهم فى بناء نظيرتها «لجنة من أجل بقاء مجلس نواب حر». تم اجتذاب كورس، إلى هذا المضمار فى سنة ١٩٧١م بمذكرة من خمسة آلاف كلمة من لويس پاول وهو محام ديمقراطى جنوبى من الطراز القديم (وفيما بعد عينه نيكسون فى المحكمة العليا). كانَ پاول يرى أن الرأسمالية تتعرض لهجوم واسع النطاق من أحد منتجاتها المدللة وهى طبقة المثقفين الليبراليين. واتهم فئة رجال الأعمال باسترضاء نقادها، بل بتمويل أنشطتهم المعادية للرأسمالية، وحثهم على الدفاع عن مصالحهم بقوة أكبر. كما أسهم كورس بماله أيضًا فى قضايا محافظة أخرى منها Indepondence Institute وهو مركز أبحاث فى كولورادو، و Accuracy in Media وهو تنظيم رقابى أنشئ لرصد التحيز الليبرالى، وعدد من الجماعات الاجتماعية المحافظة.

وإذا كان إسهام كورس فى نطاق الستة أرقام، فإن ريتشارد ميلون سكايف كان يتبرع بالحقائب. كان سكايف أحد ورثة ثروة ميلون. ولم تكن بداية حياته العملية توحى بأى اهتمام بالفكر المحافظ. وفى أواسط الخمسينيات، طردت جامعة ييل الشاب المشاغب قبل أن ينهى سنته الأولى بها. أعقب ذلك حادثة سيارة كادت تقتله وأصابت خمسة من أفراد أسرته. وبتقدم سكايف فى العمر زاد تعقله (لو كان التعقل يقاس بالمشاركة فى قضايا المحافظين). فكان من أوائل المتبرعين بالمال لحملة بارى

جولدواتر، وأقنعته صدمة هزيمة بطله المروعة بأن حركة المحافظين كانت بحاجة لأن تضارع قوة خصمها الفكرية. وبعد وفاة أمه فى سنة ١٩٦٥م، بدأ سكايف فى نقاش مطول مع شقيقته التى أرادت أن تواصل عادة أمها فى إنفاق ثروة الأسرة على الفن وتنظيم الأسرة والفقراء. وفى سنة ١٩٧٣م، رجحت حجة ريتشارد المنعزل. وكان أول تبرعاته لمؤسسة «هيريتدج» بمبلغ تسعمائة ألف دولار. وفى سنة ١٩٧٦م أى ثالث سنوات حياة هذه المؤسسة، تبرع لها بمبلغ أربعمائة وعشرين ألف دولار، وهو مبلغ كان حينئذ يمثل ٤٢ ٪ من إجمالى دخل المؤسسة. وحسبت صحيفة واشنطن بوست أن سكايف ومجلس أمناء عائلته تبرعوا على مدار العقود الأربعة التى تلت ١٩٦٠م بما لا يقل عن ٣٤٠ مليون دولار لقضايا المحافظين، أى ما قيمته ٦٢٠ مليونًا بحسابات اليوم.[٣٢]

وكان ثالث المتبرعين عائلة كوشن. كان رأس الأسرة ـ فريد ـ مقاول نفط ووقود ابتكر طريقة لزيادة كفاءة البنزين، ودخل فى صراع مع كبرى شركات النفط وشيئًا فشيئًا أنشأ شركة شديدة التنوع للطاقة. وعلى الرغم من بنائه خمس عشرة مصفاة فى روسيا ستالين (فالتجارة هى التجارة على أية حال) صار عضواً مؤسسًا لجمعية جون بيرش. وأصبح ولداه داڤيد وتشارلز كوشن من كبار المتبرعين لمبادئ الحرية. كان داڤيد يدعم حق تحرير المخدرات وحق الإجهاض، ورشح نفسه كنائب للرئيس على لائحة مبادئ الحرية فى الفكر والعمل فى سنة ١٩٨٠م. وشارك تشارلز مع إدوارد كراين فى تأسيس معهد كاتو فى سنة ١٩٧٧م. كما أنشئا شبكة منح وبعثات دراسية لتعزيز مبادئ الحرية فى الفكر والعمل بجامعات أمريكا.

وكان رابع المتبرعين، وبسخاء خاص للباحثين والمثقفين، مؤسسة ليند وهارى برادلى التى تأسست على يد الشقيقين اللذين جمعا ثروتهما من شركة آلن ـ برادلى وهى شركة إلكترونيات مقرها فى ميلووكى. كان هارى برادلى مثل روبرت كوشن من أنصار چون بيرش المخلصين، وكان روبرت ولش متحدثًا دائمًا فى اجتماعات مبيعات شركة آلن ـ برادلى فى أواخر الخمسينيات. وكان هارى يمد مجلة ناشيونال ريڤيو الفتية المناضلة بالمال والمقالات، وحاول أن يشترى نيوزويك لكى يستحوز على جمهور أعرض لأفكاره. ومع أن هارى توفى فى سنة ١٩٦٥م، فإن مؤسسته استمرت فى التبرع بالمال. وحققت المؤسسة طفرة هائلة فى سنة ١٩٨٥م بعد أن قامت «روكفلر

انترناشيونال» بشراء شركة آلن ـ برادلى ورفعت أرصدة المؤسسة إلى أكثر من ٢٦٠ مليون دولار. وفى السنة نفسها استخدمت رئيسًا ذا نشاط فائق هو مايكل چويس الذى كان أحد تلاميذ إيرڤنج كريستول.

وآخر الخمسة الكبار هو مؤسسة چون إم. أولن، التى أسسها چون ميريل أولن فى سنة ١٩٥٣م، وهو رجل أعمال ثرى يتملكه الخوف من خطر الحرية المتنامى. وفى السبعينيات، كان أولن يركز على الصلة بين الفكر الأكاديمى والسياسة العامة. وإلى جانب دعم برنامج القانون والاقتصاد بجامعة شيكاغو، والسعى لتشجيع المحاكين لأفكاره فى أماكن أخرى، أسهمت المؤسسة فى تمويل بعض منتديات الفكر والمطبوعات ومنها The Public Interest، وكان أولن يخص بسخائه بعض المفكرين مثل روبرت بورك (الذى يشغل حاليًا وظيفة أستاذ الدراسات القانونية بمعهد إدارة الأعمال الأمريكى) وإيرڤنج كريستول (الذى كان يحظى بإحدى منح أولن حتى وقت قريب).

ولم يكن هؤلاء المساهمون الخمسة وحدهم. بل كان هناك مانحون آخرون، منهم مؤسسة سميث ريتشاردسون و«اتحاد شركات هوارد پيو فريدم». وبصورة عامة كان كل من لديه مكتب فى مؤسسة أمريكا(*) فى السبعينيات يولول على شىء واحد هو أن الاقتصاد فى حالة ركود وأن أمريكا بدأت تخسر مكانتها التنافسية فى الخارج وأنهم بدءوا يتقيدون بالقوانين «حتى مفارق رءوسهم» وأن «الجانب الآخر» بدأ ينتصر. وفى سنة ١٩٧٢م، أنشأ رؤساء أكبر خمسمائة شركة ما عرف باسم «مائدة الأعمال المستديرة» لكسب التأييد لمصالحهم فى حقوق النقابات، ومنع الاحتكار، والحد من القوانين والضرائب.

كما شرعت الشركات فى تنسيق تبرعاتها للحملات الانتخابية. وفى ١٩٧٤م، كان عدد «لجان النشاط السياسى (PACS)» العمالية عن عدد «لجان النشاط السياسى (PACS)» للمؤسسات بـ ٢٠١ إلى ٨٩، وبعد عامين انقلب الميزان ليصبح عدد «لجان النشاط السياسى» للمؤسسات ٤٣٣ فى مقابل ٢٢٤ «لجنة عمل سياسى» عمالية، وفى سنة ١٩٨٤م، زاد الفارق بنسبة ٤ إلى ١ (١٦٨٢ إلى ٣٩٤).[٣٣] وتغير نمط التبرع

(*) كأن أمريكا مؤسسة كبيرة للأعمال.

أيضًا. ففى ١٩٧٤م ذهبت كافة التبرعات لشراء الحظوة لشركات بعينها، إلا أن المال سرعان ما بدأ يتجه لدعم دعايات وتشريعات عامة لصالح مؤسسات الأعمال.[٣٤] وبدأت الشركات فى اقتطاع مخصصات للمسلسلات التليفزيونية، كمنحة شركة ميلتون فريدمان لمسلسل Free to choose ومنحة بن واتنبرج لمسلسل In Search of the Real America، ولمواد تعليمية تستعمل فى الفصول الدراسية ولعشرات من أساتذة المشروعات الخاصة والدعاية للأعمال الحرة. وفوق هذا وذاك تبنت اتحادات المؤسسات الأمريكية منتديات الفكر.

وفى سنة ١٩٨٠م، كان «معهد الأعمال الأمريكى» يحظى بستمائة راعٍ من المؤسسات منها «وقف ليلى ـ Lilly Endowment» وشركة فورد و Reader's Digest.، وكان مجلس أمنائه برئاسة نائب رئيس شركة موبيل على شاكلة مؤسسات الأعمال؛ ولجنة جمع تبرعات تضم رؤساء Citicorp و General Motors و General Electric وبنك تشيس مانهاتن. وبلغت الموازنة السنوية لمؤسسة هوفر التى كانت على وشك الإفلاس فى أوائل الستينيات ٤ ,٨ مليون دولار فى سنة ١٩٨٣م. وجاء ٤٠ ٪ من هذا المال من مؤسسات أعمال وأوقافها، وكان مجلس أمنائها يضم داڤيد پاكارد (من هيوليت پاكارد) أحد أثرياء الجمهوريين. وفى السنة نفسها، جمعت مؤسسة «هيريتدج» أموالاً من حوالى مائة شركة ومؤسسة، وكان معهد إيرڤنج كريستول للشئون التعليمية يضم ١٤٥ متبرع من المؤسسات.

الملكة فيليس ورئيس وزرائها ويريش

شهدت السبعينيات حالة تعبئة أخرى لجيش المحافظين. ويسخر «المحافظون الاجتماعيون» (كانوا يلقبون «باليمين الجديد» فى ذلك الوقت) من تفرقتنا بين المثقفين والقاعدة الجماهيرية. كان العديد منهم مفكرين ـ أو مشاركين فى منتديات فكر على الأقل ـ ولكنهم لم يكونوا مثقفين من نوعية كريستول ورفاقه. وكانوا فى مجملهم متوسطى الثقافة ومن الطبقة المتوسطة ـ أى أناس أثارت اهتمامهم قضايا عامة من قبيل الإجهاض ونقل التلاميذ بالحافلات إلى مدارس بالضواحى لتحقيق التناغم العرقى والحد من الأسلحة فى يد الأفراد والأنصبة [فى إتاحة الفرص فى التعليم والعمل،

وغير ذلك]، أكثر من اهتمامهم بأحدث المقالات المنشورة فى Commentary أو Public Interest وكانوا يجمعون بين الحماس واستعداد نادر للتنظيم والتعبئة.

وكانت فيليس شلافلى من أوائل أنصار هذا الفن. ولدت نصيرة حركة المحافظين الاجتماعية فى سنة ١٩٢٤م، والتحقت بأولى فرص عملها بعد تخرجها فى «معهد الأعمال الأمريكى»، ورشحت نفسها لعضوية مجلس النواب على لائحة الجمهوريين ولكنها فشلت، ورأست «اتحاد إيلينوى للنساء الجمهوريات»، وساعدت زوجها فى إدارة الرد اليمينى على الاتحاد الأمريكى للحريات المدنية (ACLU) (كان من عملائه فلاح رفض تنفيذ الأنصبة الحكومية)، وقدمت برنامجًا إذاعيًا خاصًا بها بعنوان «استيقظى يا أمريكا»، ونجحت بصورة ما فى تربية ستة أطفال. واستأثرت شلافلى بالانتباه القومى فى سنة ١٩٦٤م بأنشودتها لحركة جولدواتر بعنوان «اختيار لا صدى ـ A Choice, Not an Echo»، ثم أمنت لنفسها مكانًا فى «هيكل» المحافظين بتنظيمها حركة جماهيرية كبيرة ضد مشروع بتعديل دستورى يتعلق بالمساواة فى الحقوق بين النساء والرجال، بدأ أنصار الحركة النسائية فى التسويق له فى أواخر الستينيات. وركزت بالموازنة السنوية الهزيلة لتنظيمها والبالغة خمسين ألف دولار على كبار أعضاء الهيئات التشريعية بالولايات المتأرجحة، فقامت بتدريب ربات البيوت والأمهات على الظهور فى الإذاعة والتليفزيون والشهادة أمام اللجان التشريعية وتنظيم حملات رسائل.

وإذا كانت شلافلى الملكة المحاربة، فإن پول ويريش كان لينين حركة المحافظين الاجتماعية ـ وهو ثورى ذو موهبة نادرة فى التعبئة والتنظيم. اختار ويريش الغداء الحر الذى يقيمه مجلس النواب والذى أشرنا إليه فى المقدمة، وكان من أبناء الطبقة العمالية (ظل أبوه يعمل مشرفًا على الغلايات بإحدى المستشفيات الكاثوليكية فى مدينة راسن بولاية وسكونسن لمدة خمسين سنة) وبدأ حياته العملية فى الصحافة، وذهب إلى واشنطن العاصمة فى سنة ١٩٦٧م للعمل كسكرتير صحافى لدى جوردن ألوت وهو سيناتور جمهورى من كولورادو. وهناك اقتنع بحاجة حركة المحافظين لإنشاء تنظيم خاص بها يوازن معاقل الليبراليين كمؤسسة بروكنجز. وفى سنة ١٩٧١م، تلقى ألوت تحليلاً من «معهد الأعمال الأمريكى» لخطة الإدارة لتمويل تصنيع طائرة نقل

أسرع من الصوت. وكان التحليل دقيقًا ومتوازنًا، وصله بعد يومين من تصويت مجلس النواب برفض المشروع. فغضب ويريش ومعه أحد معاونى ألوت المحافظين بمجلس النواب، وهو إدوين فولنر بسبب سوء التوقيت، فقررا إنشاء منتدى فكر خاص بهما، ولكن مع التركيز فيه على تغيير القوانين لا على ابتكار أفكار عظيمة.

ولدت مؤسسة «هيريتدج» فى سنة ١٩٧٣م، وكانت سنوات عملها الأولى شبيهة بكفاح لينين فى زيوريخ. كانت تضم طاقم عمل من تسع أشخاص (اثنى عشر إذا أحصيتَ الكلاب الثلاثة التى كان أحد العاملين يصطحبها معه إلى العمل)، وكان تأثيرها على قياصرة مجلس نواب تيپ أونيل لا يكاد يذكر، وتقلب عليها ثلاثة رؤساء فى سنواتها الأربع الأولى. ولكن فى الوقت الذى تولى فيه فولنر رئاستها فى سنة ١٩٧٧م، بدأت «هيريتدج» فى التبلور. وكما كان الحال بالنسبة «لمعهد الأعمال الأمريكى» كان الأمر يتعلق بتغير اتجاه الريح الأيديولوچية. ولكنه كان يتعلق أيضًا بشبكة التنظيمات المماثلة المتنامية التى كان ويريش ورفاقه ينشئون أو يشجعون.

كان منطق ويريش بسيطًا، فالليبراليون نجحوا فى السيطرة على واشنطن بالتفوق على المحافظين فى التنظيم؛ والآن على المحافظين أن يثأروا. وفسر المسألة ذات مرة بلغة حماسية واضحة قائلاً: «لو كان لدى عدوك أنظمة أسلحة تعمل ويقتلك بها فيستحسن أن تمتلك أنظمة أسلحة خاصة بك». [٣٥] ولم يجد غضاضة فى هيكلة هذه المؤسسات على غرار تنظيمات الليبراليين. وتم إنشاء لجنته «من أجل بقاء مجلس نواب حر» فى سنة ١٩٧٤م لمنافسة «اللجنة القومية من أجل كونجرس فعال». وقامت «لجنة توجيه مجلس الشيوخ» على أساس «نادى الأربعاء» وهى مجموعة من نواب مجلس الشيوخ الجمهوريين الليبراليين. وأقيم المنتدى المحافظ على غرار «قضية الديمقراطيين المشتركة». وفى أواخر السبعينيات، شكا دوجلاس فريزر رئيس اتحاد عمال صناعة السيارات من أن المحافظين «يتفوقون فى حشد التأثير ويتفوقون فى العمل وفى الإنفاق وفى استفزازنا، وللأسف يتفوقون علينا فى التفكير أحيانًا». [٣٦]

وربما كان ويريش أول أمين سر لحركة المحافظين الاجتماعية، ولكن كان هناك مفوضون غيره. وكان ريتشارد ڤيجيرى، وهو كاثوليكى تكساسى، قويًا بارعًا فى توجيه الرسائل البريدية المباشرة. وكان بطلاه السياسيان الشابان هما دوجلاس ماك آرثر وچوزيف ماك آرثر، ولم يكن لديه الوقت للتنظيم الجمهورى التقليدى، وكان

يصبو لـ «موسيقى أكثر صخبًا ونبيذ أقوى أثرًا» حسب تعبير صديقه ويليام راشر.[٣٧] وفى سنة ١٩٨٠م، كان حاسب ڤيجيرى الآلى يشتمل على أسماء خمسة عشر مليون متبرع. وأقام تيرى دولان «اللجنة القومية للنشاط السياسى المحافظ» بحيث أصبحت فى سنة ١٩٨٠م تنافس «النادى البرلمانى القومى» المحافظ على لقب أكبر لجنة نشاط سياسى فى البلاد.[٣٨] وادعت «لجنة الدراسات الجمهورية» المحافظة التابعة لمجلس النواب أنها تحظى بتأييد أغلبية الجمهوريين بالمجلس.[٣٩] وكانت هناك مؤسسات تساعد فى تنظيم برامج المحافظين فى المجالس التشريعية فى الولايات (مجلس التبادل التشريعى الأمريكى) والتأثير على وسائل الإعلام («المركز القومى للصحافة» و «الدقة فى وسائل الإعلام») ومتابعة قضاياهم فى المحاكم (المركز التشريعى القومى للصالح العام). باختصار تم إنشاء تنظيم مضاد.

وكان المحافظون الاجتماعيون يتجاوزون الحدود فى بعض الأحيان. فلو اطلع أحد من الخارج على مذكرات ڤيجيرى (اليمين الجديد: نحن جاهزون لتولى زمام القيادة) لكان له العذر إن ظن أن هذه طائفة من المجانين. فكان هؤلاء قوم ينشئون جماعات بأسماء من قبيل «فريق الحقيقة» و «لجنة عزل الرئيس». إلا أن هذه الروح المبدعة أدت بهم إلى التطلع إلى ما وراء الحزب الجمهورى بحثًا عن حلفاء. وفى سنة ١٩٧٣م، وافق ڤيجيرى على إسقاط ديون چورج والاس من حملة ١٩٧٢م الانتخابية الرئاسية فى مقابل قائمته بأسماء المتبرعين. وبعد سنتين، روج لفكرة إيجاد لائحة حزب ثالث يجمع بين ريجان ووالاس. واتحد المحافظون الاجتماعيون والديمقراطيون المحافظون معًا طوال السبعينيات لمناهضة الإجهاض والمناهج المدرسية الليبرالية والعمل الإيجابى وحقوق الشواذ ونقل التلاميذ بالحافلات إلى مدارس الضواحى.[٤٠]

الأغلبية الأخلاقية

وجد المحافظون الاجتماعيون أكثر حلفائهم حماسًا فيما أصبح يعرف بـ «اليمين المتدين». وحتى أواسط السبعينيات، كانت صلات المسيحيين الإيڤانجليكيين(*)

(*) الإيڤانجليكيون هم البروتستانت الذين يؤمنون بعصمة الكتاب المقدس، ووجدب تفسيره حرفيًا، وهو المصدر الوحيد للمسيحية، وبأن الخلاص بالإيمان بأن المسيح جاء لافتداء البشر بصلبه وقيامته من الأموات، وبوجوب التبشير بالإنجيل داخل أمريكا وخارجها، وبالمجىء الثانى للمسيح، وأغلبهم يرون أن ذلك سوف يحدث بعد معركة هرمجدون.

بالديمقراطيين أوثق من صلاتهم بالجمهوريين. فاتجهت أصوات أغلبية الإيڤانجليكيين لچيمى كارتر فى سنة ١٩٧٦م. إلا أن انحراف الديمقراطيين جهة اليسار أثار حفيظة الإيڤانجليكيين. وازدادوا سخطًا حين هدد مدير العوائد الداخلية فى عهد كارتر فى سنة ١٩٧٨م بحرمان المدارس الخاصة التى بدأت عملها بعد ١٩٥٣م من ميزاتها الضريبية بسبب اعتبارها تمارس التمييز. وكانت غالبية المدارس الخاصة فى الجنوب مسيحية. وعندما غادر القس تيم لاهاى(*) أحد مؤسسى «الأغلبية الأخلاقية» مكتب كارتر بعد لقاء غير مثمر، طأطأ رأسه ودعا قائلاً: «يارب، لا بد لنا من أن نخرج هذا الرجل من البيت الأبيض ونأتى بغيره ممن تتوفر فيه الجرأة لإعادة القيم الأخلاقية التقليدية». (٤١)

وكان كارتر أثار حفيظة عدو عنيد. فالديانة الإيڤانجليكية كانت تتقدم. وفى السبعينيات، ازداد عدد رعية «مؤتمر المعمدانيين الجنوبيين» بنسبة ١٦ ٪ وعدد أتباع «مجالس الرب» بنسبة ٧٠ ٪؛ وفى الوقت نفسه، انخفض عدد رعية الكنيسة المشيخية المتحدة بنسبة ٢١ ٪، والكنيسة الأسقفية البروتستانتية بنسبة ١٥ ٪. وفى سنة ١٩٨٠م، كادت أكبر أربع وعشرين كنيسة فى أمريكا أن تكون كلها إيڤانجليكية. وكانت أولى كنائس دبليو. إيه. كريزويل المعمدانية فى دالاس تشتمل على مركز رياضى (يحتوى على حمامات ساونا وقاعات بولنج وملاعب لكرة المضرب وساحة تزلج) و٢١ جوقة للترتيل الكنسى، ومركز تبشير، ومدرسة تسع ستمائة تلميذ، ومحطة إذاعة إف. إم. وموازنة سنوية قدرها ثمانية ملايين دولار و٢٣ ألف عضو. (٤٢) وكان اليمين المتدين مجتمعًا إلكترونيًا بقدر ما كان مجتمعًا جسديًا. وازداد جمهور مشاهدى برامج التليفزيون والإذاعة الإيڤانجليكيين من حوالى عشرة ملايين فى سنة ١٩٧٠م إلى ما يناهز ٦١ مليونًا فى غضون عشر سنوات. وحقق كل من برنامج پات روبرتسون: نادى السبعمائة روبرتسون، وچيرى فالويل Old-Time Gospel Hour نسبة مشاهدة بلغت خمسة عشر مليونًا لكل منهما. وكانت «شبكة البث المسيحية (CBN)» خامس أكبر شبكة بث مدفوعة الأجر فى البلاد بثلاثين مليون مشترك. (٤٣)

كان الإيڤانجليكيون بدايةً يقاومون إغراء التدخل فى عالم قيصر [العالم الأرضى]. وفى أوائل السبعينيات، أخذ القسس يعظون الناس بأهمية الخلاص الفردى لا العمل

(*) اشترك مع الروائى چيرى چينكينز فى كتابة سلسلة «المتروكون خلفًا ـ Left Behind» التى تحكى أحداث المجىء الثانى للمسيح، ومعركة هرمجدون، وبيع منها ٦٠ مليون نسخة، كما أنتجت كلعبة (game)، وشرائط ڤيديو.

الجماعى. كان چيرى فالويل يقول: «ليس مطلوبًا من الوعاظ أن يكون ساسة، بل روحانيين». [٤٤] إلا أن فالويل وجماعته وجدوا أنفسهم يتورطون شيئًا فشيئًا فى عالم السياسة بعد أن استفزتهم الدوامة التى تجر البلاد لأسفل. يقول فالويل: «الشيطان حشد قواه لكى يدمر أمريكا. وأراد الرب أصواتًا ترتفع لتخلص الشعب من الاضمحلال الخلقى الروحى». [٤٥]

وتهامس الليبراليون بأن الاضمحلال الخلقى مصدره أناس كفالويل وروبرتسون ممن يسعون للشهرة والنفوذ فى السياسة. وكان الطلب على العمل السياسى المسيحى لا يزال مصدره منابر الوعظ ومقاعد الكنائس. وكان قرار مصلحة العوائد الداخلية الخاص بموارد المدارس الخاصة بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير فى نظر الكثيرين. فتلقت المصلحة مائتى ألف رسالة يعترض أصحابها على التغيير، وهو رقم يفوق ما تلقت بصدد أى قرار غيره. وغرق البيت الأبيض ومجلس النواب بالرسائل البريدية. وعقد الأعضاء المحافظون بمجلس النواب جلسات استماع، وانتهى الأمر بإلغاء مشروع القانون الجديد.

وفى سنة ١٩٧٩م، أضفى المحافظون الاجتماعيون واليمين الدينى صفة الرسمية على الرباط الذى جمعهما؛ حيث شكل فالويل مع ويريش «الأغلبية الأخلاقية»، وهو مصطلح ابتكره ويريش فى أثناء أول لقاء بين الرجلين. وكان الدليل على عزم اليمين المسيحى على دخول معترك السياسة الأمريكية قبول الإيڤانجليكيين أن يجتمعوا بـ«كاثوليكى» مثل ويريش (ولو أن ويريش كان كاثوليكيًا يونانيًا ملكيًا لا رومانيًا). وسرعان ما ظهرت «الأغلبية الأخلاقية» كصوت مسيحى متشدد فيما يتعلق بقضايا داخلية، كالإجهاض والصلاة بالمدارس وحقوق المرأة وحقوق الشواذ. وفى السنوات العشر التالية، كان مقدرًا لها أن تسجل ما يقرب من مليونين ونصف المليون ناخب جديد. وسرعان ما أصبح اليمين المسيحى بالنسبة للجمهوريين كما كان السود بالنسبة للديمقراطيين: من يمكن الاعتماد عليهم ومن يبعثون الحياة فى الاجتماعات ومن يطرقون الأبواب ويجذبون الناخبين إلى صناديق الاقتراع. وكان العديد من أفراد هذه القاعدة الجماهيرية يتم تجنيدهم من بقعة فى البلاد كانت من قبل ملعب الديمقراطيين السياسى.

ثورة الجنوب

فى سنة ١٩٧٢م، سافر ناشط ديمقراطى شاب كثيف الشعر من كلية الحقوق

بجامعة ييل إلى أوستن، تكساس، بغرض الدعاية لچورچ ماكجڤرن. وفى الشهر الأخير قبل الانتخابات، أفرزت الحملة إعلانًا غريبًا يحث أهالى تكساس على مساندة حزب سام رايبوزن ولينڈون. بى. چونسون، وإرسال تبرعات على مكتب بريد أوستن. ودأب الناشطون على النزول كل يوم لجمع ثروتهم، ولكنهم كانوا يجدون الصندوق خاويًا. وفى النهاية، ظهر ظرف وحيد تم فتحه بمقر الحملة. وكان بداخله ورقة تواليت ملطخة بالقاذورات، وملحوظة مفادها أن هذا كان رأى أهالى شرق تكساس فى چورچ ماكجڤرن. وفاز نيكسون بتكساس بنسبة ٦٧ ٪ من الأصوات. ومن المستبعد أن يكون بيل كلينتون نسى التجربة.[٤٦](*)

حولت ثورة الحقوق المدنية بيض الجنوب إلى جمهوريين مخلصين حين وصل الأمر إلى انتخابات الرئاسة. فحقق نيكسون فوزًا كاسحًا فى كل ولاية جنوبية. كما احتشد المحافظون الجنوبيون وراء مسعى ريجان لعزل فورد فى سنة ١٩٧٦م، وكان ثلث ممثلى المؤتمر قادمين من الجنوب، أى أكثر من القادمين من أى إقليم آخر.[٤٧] إلا أن التقدم المفاجئ الذى أحرزه الحزب الجمهورى كان أبطأ كثيرًا على المستوى البرلمانى، وأبطأ فى سياسة الولايات. ودعم الحزب الديمقراطى مكانته باستغلال قوة المناصب (لا سيما من خلال تقسيم المناطق إلى وحدات). كما التف حول الجمهوريين فيما يخص اليمين. وفى العامين ١٩٦٥ و١٩٧٠م عارض ديمقراطيو الجنوب مشروع قانون حقوق التصويت(**). ويتندر چاك فلينت وهو ديمقراطى من چورچيا بأن أحد المنافسين الجمهوريين حاول ذات مرة أن ينافسه فى نزعته المحافظة: «مهما بذل من محاولات فإنه لم يتمكن من منافستى فى نزعتى المحافظة. إذ لم يكن هناك مجال. فإذا ذهب إلى الجانب المحافظ منى لوقع فى الهواء».[٤٨]

ولكن لم تكن دفاعات الديمقراطيين قوية بما يكفى لحماية نورث كارولينا من چيسى هلمز.[٤٩] لأن هلمز، الذى بدأ حياته كديمقراطى، اشتهر فى الولاية كمعلق إذاعى وتليفزيونى يمينى دأب على شجب «الدجل» المسمى «الحقوق المدنية». وفى سنة ١٩٧٢م، خاض انتخابات مجلس الشيوخ كمرشح جمهورى. وساعده التنافس

(*) كان هذا الشاب هو بيل كلينتون، كما يظهر من النص ومن الهامش.

(**) صدر عام ١٩٦٥م، فى سلسلة من القوانين التى تعطى حق التصويت للسود.

الشرس بين الساسة الديمقراطيين والفوز الساحق الذى أحرزه نيكسون على ماكجفرن، ففاز بسهولة على بيض الجنوب الذين خابت آمالهم بآرائه القاطعة وشعاره القائل «إنه واحد منا»؛ وفاز بالمقعد بهامش ٥٤ ٪ فى مقابل ٤٦ ٪، وواصل طريقه فى بناء تنظيم محافظ ضخم فى الولاية من خلال ناديه البرلمانى الذى كان بمثابة لجنة نشاط سياسى على درجة عالية من النجاح، مما يعنى أنه لم يكن بحاجة لأن يركن إلى الحزب لجمع التبرعات.

وفى مجلس الشيوخ، نجد أن هلمز الذى لم يفُق لطفه الشخصى سوى نقده العلنى اللاذع، سرعان ما أزاح ستروم ثورموند كنموذج لمقاومة الجنوب فى واشنطن، فهو بمثابة چورچ والاس جمهورى، لا يخشى التعبير عن آرائه الحادة عن العرق والشئون الدولية. وسرعان ما أصبح «السيناتور المعترض دائمًا» أعلى صوت فى مجلس الشيوخ فى المطالبة بخفض الخطط الداخلية وزيادة الإنفاق الدفاعى ودعم القيم «المسيحية» لا «العلمانية» ومحاربة شرور الشيوعية والأمم المتحدة، ويبدو أنهما كانا تبادليين فى نظره. وكان يؤيد نظام الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا، وأبدى تعاطفه مع الأنظمة الاستبدادية فى أمريكا اللاتينية. ولم تكن لهلمز أية مصلحة فى التخفيف من حدة معتقداته أو مهادنة نقاده أو توسيع دائرة تأييده؛ ففى خمس انتخابات لعضوية مجلس الشيوخ لم يحدث أن فاز بأكثر من ٥٥ ٪ من الأصوات، وإن تفوق على خصومه عادةً فى الإنفاق وبفوارق هائلة. وعلى عكس ثورموند الذى بذل جهودًا حتى يجتذب الزنوج إلى الحزب، أبى هلمز أن يبذل أية محاولة للتوافق مع ثورة الحقوق المدنية. فلم يكل من اللعب بورقة العرق، فكان يعارض فكرة جعل ذكرى مارتن لوثر كنج يوم عطلة، وكان يلمح إلى أن الزنوج يغتصبون فرص العمل من البيض حتى يستقطب الناخبين ويجتذب الأغلبية البيضاء إلى قضيته. وبلغ من النجاح فى جذب الديمقراطيين السابقين من البيض أن أصبح هؤلاء يلقبون بالـ «چسيقراطيين».

لم يكن الأمر يحتاج لبراعة، إلا أن نسخة هلمز من الحركة الجمهورية الجنوبية لم تبرز إلا بسبب فجاجته. إذ تجرأ وصرح جهرًا بما دأب غيره من ساسة الجنوب الجمهوريين على التلميح به سرًا. فلم يقضوا شهرًا فى محاولة عرقلة جعل ذكرى مارتن لوثر كنج عطلة (كما فعل هلمز حين تم تقديم مشروع القانون فى سنة ١٩٨٣م)؛

بل اكتفوا بالتصويت عليه بهدوء أو تحدثوا ـ مثل ريجان ـ عن حقوق أخرى للولايات كلما زاروا المنطقة. ووصلت الرسالة إلى الچسيقراطيين كما هى.

غربًا سر!

كان عقد السبعينيات كابوسًا على المؤسسة الجمهورية على الساحل الشرقى بقدر ما كانت بالنسبة للديمقراطيين من الطراز القديم. لم تكن مجرد واترجيت وهزيمة فورد. فحجرات استراحة الأساتذة بالجامعات الكبرى ومكاتب محررى نيويورك تايمز وغرف «مجلس العلاقات الخارجية» الفخمة بنيويورك ـ كلها كانت فيما سبق أماكن يجرى فيها حوار متحضر بين الجمهوريين والديمقراطيين. أما الآن، فقد وجد بعض البراجماتيين من أمثال كيسنجر وفورد أنفسهم متهمين بالنخبوية والعنصرية والإمبريالية، فى حين أن شخصيات النظام من الطراز القديم إما تم ترويضهم أو علقوا فى التيار العام المتجه نحو اليسار لدرجة منعتهم من الدفاع عنهم. ففقدت جمهورية روكفلر حيويتها.

وعلى الجانب الآخر من البلاد، كان هناك نظام جديد يتكون ولا تنقصه الثقة بالنفس. كان الغرب مكتظًا بالناجحين ممن لم يعيروا التفاتًا إلى چون كينيث جالبريث أو «مجلس العلاقات الخارجية» أصلاً، أناس كانوا يريدون أن يعيدوا صوغ السياسة كما سبق أن أعادوا صوغ ما لا حصر له من مناحى الحياة الأمريكية (بل أنفسهم فى العديد من الحالات). فأفرز الغرب نظامًا مضادًا محافظًا شديد الخصوصية.[٥٠] وكان مطبخ وزارة ريجان يكتظ بنوعية من رجال الأعمال كانت ستجد صعوبة فى أن تُنتخب لرئاسة «نادى نيكربوكر»(*)، أو فى أن تعتبر الدعوة من «اللجنة الثلاثية» إهانة: هولمز تتل تاجر سيارات من لوس أنچيليس؛ كاى ربل رجل نفط من تكساس؛ چوزيف كورس صاحب الحضور الواضح؛ هنرى سالڤاتورى چيولوچى نفط؛ والتر أننبرج ناشر؛ تشارلز ويك مقاول؛ چستن دارت صاحبة سلسلة محلات كبرى. العديد منهم ساندوا جولدواتر قبل أن يتحولوا إلى ريجان. ولم يكن معظم هؤلاء الرجال على درجة روكفلر من حيث الثراء، ولكن كان لديهم من المال ما يكفى ويزيد لأن يهبوه.

(*) نادى لقدامى المهاجرين الهولنديين إلى نيويورك.

كان يناسب هذا الطراز من حركة المحافظين أن تعود إلى الساحة القومية فى شكل ثورة ضريبية. وفى أواخر السبعينيات، كان أهالى كاليفورنيا قد ضاقوا ذرعًا بقانون الضرائب فى ولايتهم. وكانت الضرائب على الممتلكات بمثابة بعبع، إذ ارتفعت بشكل كبير مع ارتفاع أثمان البيوت فى وقت كانت حكومة الولاية تحد فيه من حجم الدعم الذى تقدمه للمدارس المحلية والخدمات العامة. فكان أهالى كاليفورنيا من الطبقة المتوسطة، ولا سيما فى لوس أنچيليس، يدفعون مبالغ كبيرة ويتلقون فى المقابل خدمات قليلة.

كان القوة الدافعة وراء ثورة الضرائب هو: هوارد چارڤيز، وهو دخيل كان اليمين يحتضنه تارةً باعتباره بطلاً ويدينه تارةً أخرى بوصفه خائنًا (اتُهم باختلاس بعض الأموال التى جمعها من رجال الأعمال لصالح جولدواتر فى سنة ١٩٦٤م). وفى سنة ١٩٧٨م، ركز چارڤيز على فكرة استغلال نظام الاقتراع فى الولاية فى خفض الضرائب على الممتلكات. فالاقتراح ١٣ وعد بمحاسبة كافة الممتلكات بنسبة موحدة قدرها ١ ٪ من قيمتها الفعلية، وألا تكون هناك ضرائب جديدة إلا باقتراع آخر. واحتشدت مؤسسات كاليفورنيا بأسرها ـ من الغرفة التجارية إلى نقابة العمال ومن جماعات الحقوق المدنية إلى موظفى القطاع العام ـ ضد هذا الاقتراح.[٥١] وهذا كله لم يكن شيئًا بجانب جيش أهالى الضواحى الغاضبين الذين حشدهم كل من چارڤيز وڤيجيرى، وتم تمرير الاقتراح بهامش ٦٥ ٪ فى مقابل ٣٥ ٪.

أشعل الاقتراح ١٣ ثورة فلاحين اجتاحت البلاد، بل العالم بأسره. وذكّر الأمريكيين بأن بلادهم نشأت بثورة ضريبية(*) وبأن الساسة خدم الشعب لا سادته. وعلى مدار السنوات الأربع التالية، صوت ما لا يقل عن ثمانى عشرة ولاية بإجراء استفتاءات لخفض الضرائب أو الحد منها. وجاب زعماء الجمهوريين البلاد فى طائرة بوينج ٧٢٧ أطلق عليها اسم «قاصفة الضرائب الجمهورية». وانزعج چيمى كارتر من ثورة الضواحى لدرجة أنه وافق على توقيع سلسلة من التخفيضات الضريبية، وكان يتحسر وهو يمد قلمه إلى الورق على ما تعود به تلك التغييرات من حظوة للأثرياء. وعلى الجانب الآخر من الأطلنطى، فسرت الزعيمة المنتخبة الجديدة لحزب المحافظين البريطانى، مارجريت ثاتشر، الاقتراح ١٣ بأنه دليل آخر على أن طرازها الحاد من الفكر المحافظ قابل للتسويق بين الناخبين. ولأول مرة بدا اليمين كأنه أصبح حركة فكرية عالمية، بينما أخذ فكر مبادئ الحرية يتردد جيئة وذهابًا على جانبى الأطلنطى.

(*) كان من الأسباب الرئيسية للثورة الأمريكية على الحكومة الإنجليزية ضريبة الدمغة والشاى.

لم يكن مستغربًا أن يصاب الناس فى بريطانيا بالسكتة حين يدفعون ٩٧ ٪ من دخولهم ضرائب. ولكن حتى فى أمريكا؛ حيث لم تبلغ المعدلات هذه المستويات، كان كثير من الناس يدفعون ضرائب أكثر مما اعتادوا عليه فى أى وقت مضى. فكان «التغير الفئوى» الذى أفرزه التضخم يعنى أن ملايين من الناس ينتقلون إلى فئات ضريبية أعلى. وفى سنة ١٩٦١م، كان حوالى تسعة من كل عشرة أمريكيين يدفعون ضريبة موحدة قدرها ٢٢ ٪، ولكن فى نهاية السبعينيات أصبح هناك ٥٥ ٪ فقط يدفعون معدلات ضريبية هامشية أقل من ٢٣ ٪. [٥٢] وفى السنة نفسها التى قدم فيها الاقتراح ١٣، تقدم كل من نائبى مجلس النواب الراديكاليين چاك كمپ من بفالو، ووليام روث من ديلاوير بمشروع قانون عرف بمشروع كمپ ـ روث اقترحا فيه خفض معدلات كافة شرائح الضرائب بحوالى ٣٠ ٪. ولم يحظ المشروع بموافقة مجلس النواب ولكنه زاد من شعبية حركة المحافظين المناوئة للحكومة. وفى الوقت نفسه وفى صحيفة وول ستريت، كان روبرت بارتلى محرر الافتتاحية يوفر مساحة كبيرة لخبراء الاقتصاد المؤيدين للنظرية القائلة بأن خفض الضرائب يشجع على الاستثمار وبالتالى يؤدى لزيادة موارد الخزينة العامة، من أمثال آرثر لافر، وچودى وانيسكى، وروبرت ماندل الذين كانوا يرحاجون بأن أفضل وسيلة لنمو الاقتصاد هى خفض الضرائب والإنفاق الحكومى وترك العمل لمستثمرى أمريكا.

وجدتها: رونالد ريجان

أصبح لحركة المحافظين الآن أسطول صغير من منتديات الفكر وجيش متحمس من الأنصار وقضية شعبية. وكل ما تحتاجه بائع سريح ذو شخصية كاريزمية يبيعها للشعب الأمريكى. وكان رونالد ريجان الاستجابة لسنوات من الدعاء، فهو مؤمن حقيقى بالحركة، وذو شخصية جذابة. فى أثناء عشاء جريديرون فى سنة ١٩٨١م بواشنطن العاصمة (قبل يومين من محاولة اغتياله) علق ريجان قائلاً: «أحيانًا اليد اليمين لا تدرى ما تفعله اليد أقصى اليمين». [٥٣]

وكما يشير ستيڤن هايوارد فى كتابه «عصر ريجان ـ The Age of Reagan»، (٢٠٠١م)، كان ريجان واحدًا من عدد معدود من رؤساء أمريكيين كانوا دخلاء

حقيقيين ممن لم يتعلموا فى «جامعات الصفوة» ولا غذاهم جهاز سياسى كبير. بل التحق بكلية «يوريكا» الصغيرة، ثم عمل فى صناعة كانت الأجهزة السياسية الرسمية تعتبرها أسخف من أن يشغل المرء نفسه بها.[٥٤] كما كان أول رئيس أمريكى يجسد حركة المحافظين الغربية. كان يحتفظ بسرج برونزى فى المكتب البيضاوى، ابتهج بالاسم الحركى «جلد خام» الذى أطلقه عليه جهاز استخباراته، وأمضى ما يقرب من سنة من رئاسته فى مزرعته بكاليفورنيا، وسارع بتعيين مالكوم بالدردج وزيراً للتجارة حين نما لعلمه أنه يهوى مباريات رعاة البقر.[٥٥] وكان ريجان صاحب صفات غريبة، منها إيمانه بالكائنات الفضائية ورفضه الاعتراف بأنه يصبغ شعره، ولكن عندما قدم ريجان نفسه بوصفه دخيلاً لا يعرف الكثير عن «متاهات قصور نهر پوتوماك الرئاسية» لم يكن يبالغ.

بدأ ريجان حياته داخل الجماعة الديمقراطية وكان يصف نفسه «ليبرالى بالدم» شديد الإعجاب بروزڤلت، وقضى سنوات مديراً للنقابة فى هولى وود. ولكنه تحول تدريجيًا جهة اليمين فى الخمسينيات، وأدى خطابه الذى أذيع تليفزيونيًا على مستوى الدولة، والذى أعلن فيه تأييده لحملة جولدواتر المتعثرة فى سنة ١٩٦٩م إلى تحوله بين ليلة وضحاها إلى بطل للمحافظين (وصار موضع غيرة من جولدواتر نفسه). وبعد سنتين، أصاب ريجان النظام السياسى بصدمة عندما فاز على إدموند ج. («پات») براون فى الانتخابات على منصب محافظ كاليفورنيا بفارق يناهز المليون صوت، وثبت أنه محافظ ناجح بصورة تدعو للدهشة، يجمع بين الخط المتشدد إبان الاضطرابات الطلابية والسياسة الليبرالية الواضحة فيما يتعلق بالبيئة والإجهاض. وكان يمكن أن يقضى عامل السن على طموحاته السياسية لولا استعداده لانتهاز فرصة اللحظة السانحة. فخرق الوصية الحادية عشرة التى ابتدعها لنفسه («لاتذكر أخاك الجمهورى بسوء») بتحديه چيرالد فورد فى ترشيحات ١٩٧٦م. وفى سنة ١٩٨٠م تمكن الممثل السينمائى المسن من الاعتماد على طاقات اليمين الجمهورى غير المحدودة.

كان ريجان محافظًا غربيًا أصيلاً، يؤمن بتقليص حجم الحكومة وضرب الشيوعية بكل قوة أينما توارت. ولكنه كان فى الوقت نفسه واحداً من كبار الساسة القلائل من غير الجنوبيين الذين عارضوا كلاً من قانون حقوق التصويت [للسود] والحقوق المدنية،

وكان أيضًا يعرف كيف يلجم بيض الجنوب. (بنصيحة من ترنت لوت، شن ريجان حملته عقب الانتخابات الرئاسية بفيلادلفيا ميسيسيبى، وهى بلدة اشتهرت بأن شرطتها المحلية فيها لم تبذل جهدًا للتحقيق فى مقتل ثلاثة عمال بالحقوق المدنية). [٥٦] أما بالنسبة لليمين المسيحى، فقد أقنعهم ممثل هولى وود بأنه فى صفهم من خلال مواقفه الفعلية من الحروب الثقافية لا من خلال قدرته على تقليص السياسة بكافة ضروبها إلى بضع مبادئ جوهرية. كان يحب أن يقول: «هناك أجوبة بسيطة ولكن صعبة». [٥٧] وكان لهذا التوجه صداه بخاصة فى مجال السياسة الخارجية، والتى ألقى ريجان باللائمة على قصورها على «شماعة التعقيد وحيلة جعل القرارات الصعبة أصعب، وعقلنة اللا قرار». [٥٨]

ومع ذلك فإن كان ريجان مؤمنًا حقًا، فإنه كان مؤمنًا فعلاً بدون العيوب الشخصية المألوفة ـ طائفى ذو طابع عالمى. ومقولة أوليفر وندل هولمز الشهيرة فى وصف روزفلت بأنه كان ذا عقل من الدرجة الثانية وطبع من الدرجة الأولى تنطبق تمامًا على ريجان. كان ريجان متفائلاً فى حزب اكتسب عادة التشاؤم. لم يكن لديه شك فى أن هناك شيئًا دفينًا فى أعماق الشخصية الأمريكية يمكن أن يخرج البلاد من أى حالة ذعر وقتية، وكانت لديه موهبة خاصة فى استغلال الفكاهة فى إبطال مفعول أكبر مشكلات حركة المحافظين، ألا وهى الخوف من أن يسيطر عليها المتطرفون. وفى الستينيات، أصيب المحافظون بنوبات غضب شديدة حين ورد ذكر الراديكاليين من الطلاب، فعلق ريجان محافظ الولاية ساخرًا بقوله: «تصرف كطرزان واتخذ شكل چين واجعل رائحتك كرائحة شيتا». [٥٩] وصرح ذات مرة لجمهوره الذى جزع من بعض التصرفات الهمجية من جانب الطلاب بأنه رأى كابوسًا مفزعًا فى الليلة السابقة مفاده أنه ورث محل لغسل الملابس فى بيركلى. وقال مازحًا ذات مرة أن الشدة مع الجريمة من المنظور الليبرالى هو إصدار أحكام أطول مع وقف التنفيذ. وكان يحب أن يقول: «صدقونى، أتفه المسلسلات له معنى بالمقارنة بما يحدث فى واشنطن».

هل كان الشعب الأمريكى مستعدًا لشخصية محافظة كهذه؟ فى سنة ١٩٨٠م، خشى جناح روكفلر فى الحزب الجمهورى من أن يؤدى ترشيح ريجان إلى كارثة. وتنبأت استطلاعات الرأى بأصوات متقاربة، لكن ريجان صدم السياسة بجذبه «المحافظين بقلوبهم» إلى داخل المعسكر الجمهورى. وفى سنة ١٩٨٠م، فاز ريجان

بأربع وأربعين ولاية بإجمالى ٤٨٩ صوتًا انتخابيًا، كما فاز الحزب الجمهورى باثنى عشر مقعدًا إضافيًا بمجلس الشيوخ، مما أعطاه أغلبية لأول مرة منذ ربع قرن - وثلاثة وثلاثين مقعدًا أضافيًا بمجلس النواب. وفى سنة ١٩٨٤م، هزم والتر مونديل بنسبة ٥٩٪ فى مقابل ٤٠٪ وفاز بأغلبية فى كل منطقة من مناطق البلاد وفى كل فئة عمرية وفى كل فئة مهنية عدا العاطلين.[٦٠] ولم يحصل مونديل إلا على ١٣ صوتًا انتخابيًا أى أقل مما حصل عليه ستروم ثورموند فى سنة ١٩٤٨م (٣٩ صوتًا) أو چورچ والاس فى سنة ١٩٦٨م (٤٦)، والحقيقة أن المرشح الوحيد من حزب كبير والذى كانت هزيمته أفدح من هزيمة مونديل هو آلف لاندن، الذى حصل على ثمانية أصوات فى سنة ١٩٣٦م أمام مثل ريجان الأعلى - روزفلت.

وبالنسبة لليمين، كانت حقبة ريجان بمثابة المرة الأولى التى يكون أحدهم فيها فى البيت الأبيض، وهو إحساس لم يتكرر حتى حلول إدارة چورچ بوش الابن. وتباهى نورمان پودهورتيز بأن الفئات العليا من إدارة ريجان كانوا من قراء مجلة Commentary، بل إن قلة منهم (ومنهم چان كيركپاترك) كانوا من كتّاب Commentary. وتم تعيين أكثر من خمسين من أعضاء لجنة «الخطر الراهن» فى الإدارة.[٦١] ويقدم ويليام رشر مثالاً لبضع أيام فى جدول مواعيد ريجان فى أوائل ١٩٨٣م: فى ٢١ فبراير حضور حفل استقبال كبير بواشنطن العاصمة لمجلة ناشيونال ريڤيو، وأعلن فيه أنها «مجلته المفضلة»، وبعد يومين منح كلاً من چيمس بورنام وكلير بوث لوس وسام الحرية، وبعد ذلك بثلاثة أيام ألقى كلمة فى التجمع السنوى لـ«مؤتمر العمل السياسى المحافظ»، وهو أمر فعله ثمانى مرات فى السنوات العشر السابقة.[٦٢]

لم يكن سجل ريجان ناصعًا بالقدر الذى يوحى به الاغتراب المحافظ. فإخفاقه فى خفض الإنفاق العام مع الخفض الضريبى، أدى إلى زيادة الدين القومى بمقدار ١,٥ تريليون دولار - ولنضع علامة استفهام على الإدارة المحافظة للاقتصاد، والباقية إلى يومنا هذا. وشاب إدارته صراع دائم بين الريجانيين والپراجماتيين. بل إن مايكل ديڤر، وهو من كبار الپراجماتيين ذهب إلى حد أن حاول منع الرئيس من تلقى Human Events وهى مجلة اشترك فيها قبل سنوات، إلا أن ريجان أبلغ المجلة بأن

تسلم النسخ مباشرةً إلى مقر إقامته بالبيت الأبيض.[٦٣] وكان ريجان، الذى نجا من محاولة اغتيال بعد توليه الرئاسة بثلاثة أشهر فقط، يعطى الانطباع دائمًا بأنه فى مهمة خاصة؛ فكانت هذه فى نظر بعض النقاد إدارة بدا فيها عرّاف السيدة الأولى أحيانًا كأنه ذو نفوذ لا يقل عن نفوذ هايك. وعلى الرغم من كل ما قاله لليمين المسيحى، فإن زوجته لم تفعل إلا أقل القليل لمساعدة القضايا الثقافية للمحافظين، كالحركة المناهضة للإجهاض. وصرحت نانسى ريجان ذات مرة بعد أن حذفت نقاشًا حول الإجهاض من خطاب حالة الاتحاد لسنة ١٩٨٧م قائلة: «لا أهتم قيد أنملة بالمطالبين بالحق فى الحياة».[٦٤]

تذمر بعض المحافظين، إلا أنه من من اليمين ساوره الشك فى أن يتمكن نجاح ريجان الكبير - الانتصار فى الحرب الباردة وإنعاش اقتصاد البلاد واستعادة شعور أمريكا بالفخار - من الرجحان على الفشل؟. بدأ ريجان رئاسته بسحق العمل المنظم، وطرد أكثر من عشرة آلاف من مراقبى المرور الجوى عقابًا لهم على الإضراب (مع أن الاتحاد كان واحدًا من الاتحادات القلائل التى أيدت طلبه الترشح للرئاسة). وزاد الإنفاق العسكرى بنسبة الثلث بين ١٩٨١م و١٩٨٥م، وأدى خفضه الضرائب إلى إضعاف مبدأ التدرج، فهبط المعدل الضريبى من ٧٠٪ إلى ٣٣٪. واستغل الفرصة التى أتاحتها استقالة وارين بيرجر رئيس المحكمة العليا فى سنة ١٩٨٦م ليعيد تشكيل المحكمة؛ حيث رقى أكثر الأعضاء محافظة وهو ويليام رانكويست ليصبح رئيس المحكمة؛ وعين محافظًا آخر هو أنطونين سكاليا بالوظيفة الشاغرة الجديدة.

وفى أواخر فترة ريجان، بدت كافة أجزاء اليمين فى مكانها. فأغلقت كاليفورنيا والغرب على الجمهوريين، وأصبح الجنوب بدون شك أرضًا جمهورية فى انتخابات الرئاسة ثم فى الانتخابات البرلمانية. وبتدعيمه بهؤلاء المجندين الجدد، أصبح الحزب الجمهورى البرلمانى فريقًا أكثر محافظة. وفيما بين ١٩٧٢ و ١٩٨٢م، زاد متوسط أعضاء مجلس النواب الجمهوريين من «اتحاد المحافظين الأمريكيين» من ٦٣٪ إلى ٧٥٪.[٦٥] وكان اليمين الدينى يواصل زحفه. وبدأ بيض الشمال يتوقفون عن اعتبار أنفسهم ديمقراطيين (كان من شعارات ريجان لإعادة انتخابه لفترة ثانية فى سنة ١٩٨٤م: «أنت لم تتخل عن الحزب الديمقراطى، بل الحزب الديمقراطى هو الذى

تخلى عنك»). كان الشعب الأمريكى يبدو مخلصًا تمامًا لتقليص حجم الحكومة. وكان اليمين قد فاز بسباق السياسة الخارجية الكبير فى الحرب الباردة. ومن ذا الذى كان يمكن أن يتصور أن يجد بعد أربع سنوات ماكجفرنيًا وضيعًا من أركانسو قابعًا فى البيت الأبيض(*) أو أن تتحول كاليفورنيا إلى أحد معاقل الديمقراطيين؟

* * *

(*) المقصود بيل كلينتون الذى أصبح رئيسًا من ١٩٩٢ إلى ٢٠٠٠م.

الفصل الرابع

أمة البين بين
١٩٨٨-٢٠٠٠م

فى التسعينيات، حلت بحركة المحافظين نقمة فى صورة شخص جذاب من جيل الانفجار السكانى من أركانسو. ومن الصعب أن نغالى فى وصف الجاذبية التى كان يبدو عليها بيل كلينتون فى أول ظهوره. التقى به أحدنا فى لقاء الخريف الذى عقدته «اللجنة القومية الديمقراطية» بفندق بيلتمور فى لوس أنچيليس فى أكتوبر ١٩٩١م. وكان الحدث فى الحقيقة صعبًا. إذ كان اليوم شديد الحرارة، ولم يكن لقاء مرشحى الرئاسة الديمقراطيين أمرًا مغريًا. فمع أن الاقتصاد كان فى الحضيض، فقد بدا أن چورچ بوش الأب المنتصر فى عاصفة الصحراء كان مقدرًا له أن يعود إلى بيته قرير العين. وكان هذا «القدر» أحد أسباب عدم تمكن أشهر الديمقراطيين وهو ماريو كومو من الوصول إلى لوس أنچيليس. كان هناك صحافيان من الجنوب أدركا الجو العام فى الفندق، فقال الأكثر بدانة بينهما: «أنا مللت. هيا بنا نستفز هيلارى».

كانت القاعة مزدحمة بمجموعات صغيرة من زملائهم الصحافيين يتحدثون إلى مرشحى المستقبل، ولكن كانت هناك مجموعة أكبر من غيرها وأخذت تكبر أكثر وأكثر كلما تحدث المرشح. لم يكن عليك أن تقضى وقتًا طويلاً مع كلينتون حتى تدرك أنه طبيعى. فهناك المصافحة بيد قوية والإحساس الفورى بالحميمية. وكان هناك أيضًا إلمامه بأموره: الرعاية اليومية فى مقاطعة أورانچ، إصلاح دولة الرفاهية فى مينيسوتا، المحافظة على النظام فى ألمانيا، كان الرجل على دراية موسوعية بالسياسة الاجتماعية. ومع تدفق الأفكار يدرك المرء أن هذه ليست ليبرالية من الطراز القديم. فلم يكن

كلينتون يريد توسيع نطاق إعانة البطالة، بل كان يريد تغييرها. كان يؤيد حرية التجارة بكل قوة، وكان يتخذ خطًا متشددًا فى السياسة الخارجية، وكان يفضل تطبيق عقوبة الإعدام. أخيرًا، ها هو ديمقراطى - أو بالأحرى ديمقراطى جديد - يمكن لأمريكا الطبقة الوسطى أن تسانده.

ربما لم يكن من الصعب على شاب لديه الكثير من الأفكار أن يتألق حين يوضع ضد جورج بوش المحارب «البارد» الذى انتهت حربه الباردة ولم يكن يطلب ولو رشفة قهوة دون أن يتمظهر بالأرستقراطية، وهو يخالف أفضل ما فى كلينتون. فكان الديمقراطى الجديد بفندق بيلتمور أفضل ما أفرزته أمريكا الليبرالية من نماذج تواجه المحافظين؛ فهو أفضل محاور فى سنه، ذو لكنة جنوبية وذو رسالة وسطية. وسرعان ما تحول إلى تجسيدًا للشر فى نظر المحافظين، لا لكثرة خطاياه وحسب، بل لأنه كان سياسيًا بارعًا. شاهد نيوت جينجريتش ذات مرة كلينتون وهو يلقى خطاب حالة الاتحاد وقال لنفسه: «قضى أمرنا؛ يستحيل أن نهزم هذا الرجل».[1] وعلى الرغم من ارتكابه سلسلة من الحماقات الشخصية والسياسية على السواء، فإن كلينتون ترك منصبه بأفضل معدلات رضا الشعب منذ عهد چون كنيدى.

لم يكن كلينتون التحدى الوحيد الذى واجه اليمين فى التسعينيات. فلو لم يكن المحافظون الأمريكيون جماعة من الأتقياء، فلربما توقفوا ليتساءلوا عن حكمة الله فى أن يرميهم بكل هذه الصواعق فى غضون سنوات لا تزيد عن العشر. فانهيار الشيوعية مع أنه كان موضع ترحيب، سلب حركة المحافظين العدو الذى كان يوحدها دومًا. وانتهت فترة رئاسة بوش بفوضى عارمة. وبعد أن ظن المحافظون مرتين أنهم غيروا السياسة الأمريكية للأبد - فى ١٩٦٨ و١٩٨٠م - وجدوا أن أمريكا لا تزال «شعبًا بين بين». كان الحديث يدور كله عن الناخبين المترددين وعن المرشحين الذين يناوئون النظام القائم من أمثال بوكانن، وبيرو، وچون ماكين.

ولكن هل كان هذا وقتًا عصيبًا فعلاً بالنسبة لحركة المحافظين؟ فالعقد انتهى بوجود بوش الأكثر محافظة فى البيت الأبيض، والجمهوريون لهم الغلبة (ولو بالكاد) فى كلا مجلسى الكونجرس. والأهم أن عقد التسعينيات كشف حدود الليبرالية. تحقق لليسار

الأمريكى كل ما تمنى ـ أبرع سياسى فى جيله وفترة طويلة من السلام والرخاء وسلسلة من أخطاء الجمهوريين الفادحة ـ وكان جدول الأعمال لا يزال من وضع اليمين. وكان رونالد ريجان سيسعد بمنجزات كلينتون الكبرى: إصلاح دولة الرفاهية، وتحقيق توازن الموازنة، وانتعاش سوق المال، وإخراج ثلاثمائة وخمسين ألف شخص من قائمة مرتبات الحكومة الفيدرالية. وكلما ولى كلينتون وجهه صوب اليسار ـ إلى الشواذ فى الجيش والرعاية الصحية ـ كان يُمنع من ذلك. وعندما حاول خلفه الذى يستحق الجلد آل جور أن يشعل النزعة الشعبية الليبرالية من جديد، خسر انتخابات لا يمكن أن تُخسر.

قصور السيد بوش

انصرمت السنوات الاثنتى عشرة التى فصلت بين ترشيح چورچ بوش الأول للرئاسة فى سنة ١٩٨٨م وترشيح ابنه فى سنة ٢٠٠٠م بشكل غريب؛ أربع سنوات من انحسار المحافظين (رئاسة بوش الأول)؛ وسنتان من انتشار الليبراليين (السنتان الأوليان من رئاسة كلينتون)؛ وسنتان من انتشار المحافظين («ثورة جينجريتش»)؛ ثم أربع سنوات من انحسار الليبراليين (فترة كلينتون الثانية).

هناك طريقتان للنظر إلى رئاسة بوش الأب، إحداهما كنموذج للخدمة العامة القائمة على الإحساس بالواجب. فنحن أمام پراجماتى محترم، قاد حلف الأطلنطى إلى نهاية الحرب الباردة الأليمة، وعاقب صدام حسين بتعبئة الأمم المتحدة، وقوم تجاوزات حقبة ريجان، ووضع أسس ازدهار عهد كلينتون الطويل باتخاذ قرارات غير شعبية. هذه هى النظرة التى يشترك فيها معظم الأمريكيين والأوروپيين حاليًا،[٢] وارتفعت أسهم بوش بصورة ثابتة منذ أن ترك منصبه. ولكن من المؤكد أنها ليست نظرة حركة المحافظين.

وبتنصيب بوش الابن بالبيت الأبيض فى سنة ٢٠٠١م، كان من السهل نسيان مدى اشمئزاز اليمين من أبيه. ففى سنة ١٩٨٨م، واجه بوش الذى كان نائب الرئيس تحديات قوية من پات روبرتسون بطل اليمين الدينى، وپيت دوپونت وچاك كمپ، وهم جميعًا مثاليون من أنصار خفض الضرائب. وفى أعقاب هزيمة بوش فى سنة

١٩٩٢م، تحدث العديد من المحافظين عن «سنوات بوش ـ كلينتون» كأنها كانت جزءاً من حالة انجراف مروعة وحادة. فها هو ديك آرمى الذى كان حينئذ نائبًا برلمانيًا جمهوريًا عن تكساس يقول فى سنة ١٩٩٥م:

> عندما رحل رونالد ريجان عائداً إلى كاليفورنيا فى ٢٠ يناير ١٩٨٩م، وجد چورچ بوش فى حوزته أرصدة أكبر مما كان لأى رئيس فى التاريخ. اقتصاد مزدهر، عالم يستيقظ على حرية جديدة، الفكر الاشتراكى فى حالة خزى . . . وحين رأى الناخبون الليبرالية تحتضر، تحولوا إلى چورچ بوش وقالوا له «أجهز عليها!» ولكنهم لم يجنوا سوى عكس ثورة ريجان.[٣]

بينت حملة ١٩٨٨م لآرمى وحلفائه أن بوش لم يكن رونالد ريجان. وحين اتهم بوش بالتخاذل على غلاف مجلة نيوزويك أو حين نبذ باعتباره «الزوج الأول لكل امرأة» فى برامج الحوار الليلية المتأخرة، كانت وسائل الإعلام الليبرالية لا تقول فى العلن إلا ما تهامس به المحافظون سراً. وبدا الأمر كأن مايكل دوكاكيس قد يستفيد من هذه الفرصة.

إذا كان كلينتون فى فندق بيلتمور هو البطل المثالى، فإن دوكاكيس كان نسخة أولية من إنسان نصف آلى ـ ديمقراطى معدل نزعت منه أجزاء حيوية. وكان دوكاكيس يركز على الفكر التكنوقراطى «الليبرالى الحديث» الذى ناصره جارى هارت فى سنة ١٩٨٤م (وكان سيحاول أن ينهض به مرة أخرى فى سنة ١٩٨٨ لولا أن ضُبط وهو يمرح مع ممثلة على ظهر قارب يسمى «شغل قرود»). كانت الليبرالية الحديثة فكراً يستهدف ناخبى الضواحى، تخلى عن المواقف اليسارية فى المسائل الاقتصادية (لم يقترح دوكاكيس أية ضرائب جديدة) ولكنه مع ذلك اتخذ موقفًا أوروپيًا «متحضراً» من مسائل ثقافية، كالسيطرة على بيع الأسلحة بيد الأفراد والبيئة وعقوبة الإعدام. وحقق محافظ ماساشوستس بصورته التى توحى بالكفاءة تقدمًا كبيراً فى الربيع. وما إن ظهر جروڤر نوركويست الناشط المناهض لرفع الضرائب فى حفل زملاء هارڤارد، أبلغه زملاؤه الليبراليون بخبر مفاده أن بوش كان متخلفًا بمقدار سبع عشرة نقطة.[٤]

تمكن لى أتواتر مدير حملة بوش الانتخابية من إضعاف فرص دوكاكيس بحملة تستهدف الناخبين من ذوى الياقة الزرقاء فى المقام الأول، وتركز على الطابع

اللا أمريكى لهذا الموقف الأوروبى. وكان دوكاكيس عضواً نشطًا فى «اتحاد الحريات المدنية الأمريكية»، ورجلاً ساعد مغتصبين زنوجًا من أمثال ويلى هورتن على الخروج من السجن قبل الأوان لكى يضيفوا جرائم جديدة لقائمة جرائمهم، ومتخاذلاً فى قضايا الدفاع (رسالة تم تأكيدها بصور لدوكاكيس على ظهر دبابة يبدو فيها كالأبله). واحتشد تحالف ريجان القديم ليفوز بوش بنسبة ٨١٪ من أصوات المسيحيين الإيڤانجليكيين - أى أكثر مما فاز به ريجان نفسه - وأغلبية أصوات الذكور البيض من كافة مستويات الدخل.[٥]

وإذا كان بوش المرشح مستعدًا للقتال كجنوبى أبيض (redneck) فإن بوش الرئيس آثر أن يحكم بالطريقة الأبوية المحافظة (كان يصف غرائب أتواتر بقوله «ذلك تاريخ»). وسارعت مارجريت ثاتشر التى قالت له ذات مرة «لن تتردد معى الآن يا چورچ» بوصف بوش بأنه «رطب» پراجماتى لا تعنيه الأيديولوچيا بقدر ما يُعنى بحسن الإدارة. وفجأة لم يعد الحكم هو المشكلة. ففى أول خطبه خارج ساحة البيت الأبيض، صرح بوش لحشد من كبار الموظفين بأنهم من أهم الفئات التى يتحدث إليها: «كلنا هنا بسبب إيماننا بالخدمة العامة باعتبارها أسمى وأنبل مهمة».[٦] وكانت إشادة خليفة ريجان بالعمل الحكومى بوصفه أنبل مهمة بمثابة لعنة فى نظر المؤمنين حقًا.

وكانت هناك هرطقات أخرى. فماذا كانت تلك الأسطوانة المتكررة عن «شعب ألطف وأكثر تهذيبًا؟» لا شك أنها كانت تدعم فرية ليبرالية مفادها أن الثمانينيات كانت عقد جشع.[٧] وماذا كان الوعد بأن يكون الرئيس البيئى سوى دعم للتشهير بريجان بأنه لوث الحياة البرية؟ ففى الخارج، وبدلاً من التعجيل بانهيار الشيوعية آثر بوش - من وجهة نظر المحافظين الجدد على الأقل - أن يبطئ انهيارها؛ فواصل معاملة العدو باعتباره الحكومة الشرعية حتى حين أوشكت على فقد سيطرتها على شوارعها. وفى الداخل، أعطى بوش انطباعًا لليمين بأنه يعتبر السياسة الداخلية إقطاعية ديمقراطية. فكان يستحسن إما ترك الأشياء على حالها (اقترح چون سنونو رئيس موظفى البيت الأبيض فى سنة ١٩٩١م أن «يجتمع مجلس النواب وينفض ويرحل» لأن البيت الأبيض لم يكن لديه أية مشروعات قوانين يرسلها إليه) أو محاولة تقديم حلول وسط معقولة.[٨] وأثار مشروع قانون «الهواء النظيف» ومشروع قانون «الأمريكيين ذوى

الإعاقات» حفيظة اليمين، لا لمجرد أنهما كانا يوسعان نطاق لحكومة، بل لأنهما أثبتا استخفاف بوش «بمسألة الرؤية». فصرح أحد كبار الموظفين لصحيفة واشنطن بوست بقوله «ليست لدينا أيديولوچيات، بل لدينا رهونات».

أطلقت هذه الرسالة البراجماتية حول المبدأ بصورة أكثر توكيداً على مستوى شخصي. وكانت هناك جيوب صغيرة لحركة المحافظين، أبرزها مكتب نائب الرئيس الذى كان يديره بيل ابن إيرڤنج كريستول، ووزارة الإسكان والتنمية الحضرية التى تولاها چاك كيمپ. ومع ذلك سعى بوش بصورة عامة لإحلال صمغ المعتقدات المشتركة بصمغ الولاء الأسرى. وكان السؤال الأساسى هو ما هى علاقتك بالرئيس؟ وهو سؤال كان فى بعض الأحيان يبدو هزليّا. فكانت إحدى سكرتيرات بوش، وهى نانسى هوانج، ابنة صاحب المطعم الصينى المفضل لدى الرئيس فى هيوستون.[٩] وحصل تشيس أونترماير الذى كان يعمل فى المكتب البرلمانى لبوش فى أواسط الستينيات على وظيفة التخلص من الريجانيين واستبدال البوشيين بهم. وكانت الاستمارات التى يتعين على المتقدمين لفرص العمل ملئها تطلب من المرشحين الحديث عن «تجربتهم البوشية».[١٠] فلا غرو أن المثقفين المحافظين ممن كانوا يشرفون على الصفحة الافتتاحية لصحيفة وول ستريت، كانوا فى غاية القسوة مع بوش منذ البداية.

وشعرت القاعدة أيضًا بالإهمال. ففى أثناء الحملة الانتخابية، كان بوش يغازل اليمين بشكل يائس بالوعد بعدم رفع الضرائب وإلقاء كلمات فى تجمعات الإيڤانجليكيين والحديث عن قناعاته الدينية. وعندما ضمن الانتخابات، نسى الموضوع تمامًا. وكان البيت الأبيض فى حقبة ريجان قد استحدث مكتبًا للعلاقات العامة للتواصل مع النشطاء المحافظين. وسرعان ما ضم سنونو هذا المكتب إلى إمبراطوريته، ثم خفض عدد موظفى المكتب ممن يتعاملون مع المحافظين إلى واحد ووسع نطاق العلاقات العامة لتشمل كافة جماعات المصالح لا الجمهوريين وحدهم.[١١] وعندما رحل سنونو عن منصبه فى ربيع ١٩٩٢م، كان المحافظون يتبادلون الحكايات عن معاملتهم بعدم احترام. فيحكى أن سنونو صرخ فى وجه ريتشارد ليشر عندما انتقد رئيس الغرفة التجارية اتفاق موازنة ١٩٩٠م فى برنامج تليفزيونى قائلاً «سأقطع خصيتيك بمنشار كهربائى».[١٢]

وإذا كان بوش قد أخفق فى سداد دينه للمحافظين، فإنه كان فى غاية الأدب مع مجلس النواب الذى يسيطر عليه الديمقراطيون. وكنائب برلمانى سابق، كان بوش يقدر المؤسسة بشكل خاص، وكان دائمًا يقدم نفسه كرئيس وزراء أكثر من كونه رئيسًا للجمهورية. فقال وهو رئيس منتخب: «أنا لا أفكر فى كلمة «أمر رسمى». «فأنا أريد أن أعمل مع مجلس النواب لكى ننفذ معًا إرادة الشعب». ومن منظور اليمين، كان مجلس النواب غالبًا يضع جدول أعمال رئاسة بوش، وكان الرئيس قليلاً ما ينتقد شركاءه فى الحكم من الديمقراطيين برغم أنهم كانوا فى رأى المحافظين مجالاً خصبًا للأهداف، من تورط تد كنيدى فى قضية اغتصاب پالم بيتش إلى فضيحة غسيل الأموال فى مكتب بريد مجلس النواب.

كان اليمين على حق. فقد ثبت أن رفض بوش مواجهة الديمقراطيين هو حكاية تقليدية عن المزايا قصيرة الأجل والكارثة بعيدة الأجل. ومع أن نسبة مصداقية بوش بلغت ٩١ ٪ (فى ربيع ١٩٩١م حين كانت القوات العائدة تخطو أمامه فى شارع پنسلڤانيا) فإن فرصه للحصول على فترة رئاسة ثانية تحطمت على صخرتين سياسيتين جديدتين، إحداهما سلالة جديدة من الجمهوريين ذوى النزعة الوطنية العالية فى مجلس النواب، والأخرى سلالة جديدة من الديمقراطيين الوسطيين فى البلاد. وتجسدت هاتان السلالتان فى شابين نضجا قبل الأوان من جيل الطفرة السكانية ـ كلاهما حاد الذكاء وكلاهما من نواتج التفكك الأسرى وكلاهما من المغرمين بالعلاقات الجنسية ـ وقدر لهما أن يسودا عالم السياسة فى معظم التسعينيات.

نيوت وبيل

ذاع صيت نيوت جنجريتش لأول مرة فى مايو ١٩٨٤م عندما أدانه تيپ أونيل رئيس مجلس النواب فى لحظة غضب. وفى كلمة ألقاها من قبل، كان النائب البرلمانى الشاب من چورچيا قد وبخ عددًا من الديمقراطيين واتهمهم بـ «التعامى عن الشيوعية» وتحداهم أن يردوا. وفى ذلك الوقت لم يكن مسموحًا لآلات التصوير إلا بعرض العضو المتحدث، وبالتالى لم يكن يمكن للمشاهد أن يعرف ما إذا كان أى ممن يقصدهم جينجريتش حاضرًا فى القاعة. قال أونيل وهو غاضب: «هذا أحط ما رأيت

طوال اثنتين وثلاثين سنة فى مجلس النواب» ـ ولكنه بذلك خرق قواعد الذوق بمجلس النواب وكان لا بد من حذف كلماته هذه من مضبطة المجلس، وهى إهانة لم توجه لمتحدث منذ ١٧٩٨م.

كانت إهانة أونيل بالنسبة لجينجريتش مؤشرًا بأن يضاعف جهوده. وقبل ست سنوات، كان أستاذ الجامعة المثالى السابق قد دخل المجلس فجأة بهدفين متواضعين هما استعادة المجلس من الديمقراطيين والإطاحة بـ «دولة إعانة البطالة الليبرالية». كان الزخم وقوة الدفع كل شىء بالنسبة لجينجريتش. وروى عنه أنه قال فى سنة ١٩٨٥م: «عندى طموحات شخصية كبيرة. أريد أن أغير الكوكب بأسره، وسأفعل».[١٣] وكان جينجريتش يقدم أفكارًا ومذكرات وأشرطة ڤيديو بمعدلات مذهلة. بل إنه أخذ يتصل هاتفيًا بأحد مسئولى ريجان فى السادسة والنصف صباحًا كل يوم ظنًا منه أنه سيؤثر على تفكير البيت الأبيض طوال اليوم.[١٤]

لم يكن الديمقراطيون فى عالم جينجريتش على خطأ وحسب، بل كانوا فاسدين أيضًا. وكان يخرق القواعد المرعية فى مجلس النواب ليصف خصومه بالغباء واللا أخلاقية.[١٥] وكان يجمع عددًا من زملائه المشاغبين فى «جمعية فرصة المحافظين» ويركز على فكرة استغلال قناة (C-SPAN) التى كانت موضع تجاهل معظم النواب بسبب انخفاض عدد مشاهديها كأداة لشن سلسلة لا تتوقف من الهجمات الحادة القصيرة على الديمقراطيين من نوعية الهجمة التى أثارت غضب أونيل. وعندما ترك أونيل رئاسة المجلس فى سنة ١٩٨٧م، شرع جينجريتش فى التركيز على كشف خطايا چيم رايت رئيس المجلس الجديد. وكانت الأدلة المتوفرة لديه ضد رايت ضعيفة (كان يبدو أن أسوأ خطايا رايت كانت حصوله على صفقة خاصة فى عقد أبرمه لنشر كتاب). وأخذ العديد من الجمهوريين يحثون جينجريتش على التوقف عن البحث، إلا أن لجنة الأخلاق التابعة لمجلس النواب وجهت لرئيس المجلس خمسة اتهامات وادعت أنه خرق تسعة وخمسين من قواعد المجلس. واضطر رايت فى النهاية للاستقالة، مما أحرج الجمهوريين المعتدلين وأسعد الراديكاليين من أنصار جينجريتش.

كان جينجريتش رمزًا لعصر جديد من الوطنية المتقدة، تؤكد أن الأحزاب لم تعد مجالات للموافقة بل للأيديولوچيا. وبين ١٩٧٢ و١٩٨٦م كانت الفجوة بين الحزبين

فى مجلس النواب (قياسًا بمعدلات تصويتهما من «اتحاد المحافظين الأمريكيين») اتسعت من ٣١ نقطة مئوية إلى ٥٥ (انظر الملحق). فى عهد ريجان نسى الديمقراطيون كافة قواعد التحضر القديمة فى التعيينات القضائية بجلد روبرت بورك، وهو مثقف محافظ رشحه ريجان لرئاسة المحكمة العليا فى سنة ١٩٨٧م. فبدلاً من مساءلته بأدب، أخذ تد كنيدى يعنف بورك بخصوص عمليات الإجهاض فى الشوارع الخلفية. ولم تحل محاولات جورج بوش الأب كرئيس لأن يكون مهذبًا دون تفشى عملية الجلد. فاتهم مرشحه النائب جون تاور لمنصب وزير الدفاع بسلسلة من الجنح الشخصية الصغيرة من قبل زملائه السابقين، فى حملة مسعورة غذتها تكهنات صحفية مبالغ فيها غالبًا.[١٦] وجاءت المعركة حول كلارنس توماس، وهو محافظ زنجى رشحه بوش لرئاسة المحكمة العليا فى سنة ١٩٩١م، لتأخذ سياسة التدمير الشخصى إلى أبعاد أعمق لا سيما عندما وجهت أنيتا هيل أستاذة القانون الشابة الاتهام لتوماس بالإدلاء بتعليقات غير لائقة عنها. وسرب الديمقراطيون تفاصيل عن استئجار القاضى أشرطة ڤيديو إباحية، ولطخ الجمهوريون سمعة هيل فى كتب وأعمدة صحف؛ فعلقت مجلة «American Spectator» فى مارس ١٩٩٢م فى مقال كتبه داڤيد بروك بأن من وجهها الاتهام للقاضى كانا «شخصًا مخبولاً قليلاً وأخرى ساقطة قليلاً»، ولكنه اعترف فيما بعد بأن حكمه كان مبنيًا على معلومات مغلوطة.[١٧]

لكن مشاكل بوش مع أنصار جينجريتش لم تكن أقل منها مع الديمقراطيين. فشهدت الثمانينيات انقسامًا متزايدًا فى صفوف الجمهوريين بين النواب البراجماتيين من أمثال بوب دول ممن كانوا مستعدين لرفع الضرائب لخفض العجز، ومعاندة أنصار خفض الضرائب. وأخذ بوش يقفز من أحد جانبى الانقسام (مستنكرًا «اقتصاد السحر الأسود» الذى اتبعه ريجان فى حملته الانتخابية لسنة ١٩٨٠م) إلى الجانب الآخر («ثقوا فيما أقول: لا ضرائب جديدة» فى سنة ١٩٨٨م). وبعد توليه الرئاسة، اختار مستشارين اقتصاديين براجماتيين كريتشارد دارمن ونيكولاس برادى الذى أقنعه بأن السبيل الوحيد لإنعاش الاقتصاد خفض عجز الميزانية.

وفى صباح ٢٦ يونيه ١٩٩٠م، تم لصق بيان يبدو روتينيًا على لوحة إعلانات البيت الأبيض. وكان البيان محصلة المفاوضات التى جرت بين البيت الأبيض والقيادة

الديمقراطية فى مجلس النواب، وينص على أن الجانبين اتفقا على خطة لإصلاح العجز تشمل «زيادة العوائد الضريبية». [١٨] وبعد ظهر اليوم نفسه، أرسل تسعون من النواب الجمهوريين خطابًا لبوش يتعهدون فيه بالتصويت بالرفض على أية خطة كهذه. وراهن البيت الأبيض على انسحاب أنصار جينجريتش من هذا الرفض، وكشف النقاب عن خطة تقضى بجمع ١٣٠ مليار دولار من ضرائب جديدة تفرض على مدار السنوات الخمس التالية. ولكن تم التصويت عليها بالرفض، وانضم ١٠٥ من أنصار جينجريتش إلى صفوف ديمقراطيى اليسار ممن طالبوا أيضًا بمزيد من إعادة التوزيع. وأمام عناد جينجريتش، كان السبيل الوحيد لبوش لكى يمرر مشروعه أن يغوى المزيد من الديمقراطيين لتأييد الزيادات الضريبية (منها زيادة كبيرة فى سقف الضريبة على الدخل من ٢٨ ٪ إلى ٣١ ٪). كان الرئيس فى غيظ من جينجريتش؛ إلا أن العديد من قاعدة المحافظين العريضة اعتبرت انسحاب بوش من خطة رفع الضرائب خيانة. وبتدهور الاقتصاد، هرعوا إلى بات بوكانن وهو معلق محافظ ركب موجة عصيان على الملك چورچ.

كان بوكانن يمثل جماعة متنامية أخرى فى تحالف اليمين الآخذ فى التفتت، أى جماعة المحافظين القدامى. فى الداخل، أراد هؤلاء التقليديون ضرائب أقل وموقفًا أشد فى الحرب الثقافية؛ وفى الخارج كان كاتب الخطب السابق الغاضب ينادى بعودة إلى الانعزالية والحماية وتفوق أمريكا. وكان يرى أن أمريكا بانتهاء الحرب الباردة ينبغى أن تنأى بنفسها عن المآزق الإمبريالية. وقال عن حرب الخليج: «هناك الكثير مما يستحق أن نقاتل من أجله، أما عشرة سنتات زيادة فى سعر جالون البنزين فلا يستحق». [١٩] وفى محاولته جر شكل المحافظين الجدد، ألقى بوكانن باللائمة عن الحرب على «وزارة الدفاع الإسرائيلية وفريق «آمين» التابع لها فى الولايات المتحدة» [٢٠]. فأثار كلامه تهمًا بمعاداة السامية، إلا أن دفاع بوكانن عن مصالح البلاد قدم إطارًا مناسبًا لنقمة المحافظين على إدارة بوش، وفاز بحوالى ٤٠ ٪ من الأصوات فى انتخابات نيوهامپشاير الأولية فى يناير ١٩٩٢م مما مهد لهزيمة بوش فى نوفمبر من السنة نفسها.

ربما كان يمكن تجنب هذه الهزيمة لو لم يكن الديمقراطيون قد شرعوا فى اتخاذ شكل جديد أكثر مصداقية. تأسس «مجلس قيادة الديمقراطيين» فى سنة ١٩٨٥م على

يد آل فروم، وهو معاون برلماني شاب بارع، لإبعاد الحزب عن تحالف ألوان الطيف بين جماعات المصالح الراديكالية التي وصفها بـ«رؤساؤه الجدد». [٢١] أسس فروم كتلته على غرار جماعات محافظة من قبيل «هيريتدج» عامدًا؛ وفي سنة ١٩٨٩م أفرخ «مجلس القيادة الديمقراطي» مركز أبحاث تحت مسمى «معهد السياسات التقدمية». ونظرًا لأن «مجلس القيادة الديمقراطي» قام على أكتاف ديمقراطيين بيض أذكياء من الجنوب والغرب، فقد أعرض عنه الكثيرون باعتباره متحيزًا للبيض ومفرطًا في العقلانية وفي التوجه التجاري، أو «ديمقراطيون من أجل طبقة الموسرين» على حد تعبير چيسي چاكسون. ومع ذلك اكتسب المجلس نفوذًا متناميًا من خلال وضوح تحليلاته.

اتخذ «مجلس القيادة الديمقراطي» موقفًا من القضايا الثقافية مختلفًا عن موقف الليبراليين الجدد من أمثال دوكاكيس. فكان أعضاؤه صقورًا فيما يتصل بالدفاع وطرحوا تساؤلات صعبة عن السياسات الاجتماعية منها: هل يستطيع الديمقراطيون أن يستمروا في اتهام كل من يطالب الأمهات الزنجيات غير المتزوجات بأن يتحملن المزيد من المسئولية عن أطفالهن بالعنصرية؟ هل الحزب الديمقراطي حزب نقابات المعلمين أم حزب التعليم؟ وخرج أول بحث أنتجه «معهد السياسات التقدمية» برفض تحديد حد أدنى للأجور وتأييد زيادة الائتمان على ضرائب الدخل. [٢٢] ومن المنظور الانتخابي، كانت رؤية فروم تتجاوز الأمهات المرفهات إلى الديمقراطيين الريجانيين - لا سيما العمال البيض ممن أثبتت استطلاعات الديمقراطيين غضبهم على محاولات الليبراليين تملق الأقليات.

كان العديد من الديمقراطيين، ومنهم آل جور، يعبرون عن أفكار «مجلس القيادة الديمقراطي»، ولكن منذ أن تولى كلينتون رئاسة التنظيم في سنة ١٩٩٠م، كان من الواضح أن بإمكانه تسويق رسالته بشكل أفضل من غيره. أصر كلينتون أمام حزبه على أن الناخبين من الطبقة المتوسطة «لم يعهدوا إلينا في الانتخابات القومية بالدفاع عن مصالحنا القومية في الخارج، وبصوغ مبادئهم في شكل سياسات اجتماعية في الداخل، أو بتحصيل أموال ضرائبهم لننفقها بنظام». [٢٣] ومنذ ١٩٧٢م، بعد أن نجح ريتشارد نيكسون في صوغ الانتخابات في عبارة «أمريكا المحافظة ضد أمريكا الراديكالية» بدأ الديمقراطيون يتخذون مواقعهم في أمريكا الراديكالية. ولم يكن

كلينتون عازف الساكسوفون من المحافظين، ولكن فى الوقت نفسه لم يكن يمكن عزله كأنه شخصية دوكاكيسية. وكان يهاجم بوش لتخاذله مع الصين ومع الأخت سولچا وهى ناشطة زنجية، للعنصرية.

من دلائل افتقار چورچ بوش الأب للمسة السياسية، أنه لم يأخذ كلينتون مأخذ الجد إلا بعد فوات الأوان. وأشار ذات مرة إلى مقعده بالمكتب البيضاوى وقال ممازحًا كبير معاونيه: «هل لك أن تتصور بيل كلينتون جالسًا هنا؟»[٢٤]. كان لى أتواتر على دراية تامة بإمكانات كلينتون، ووضع خطة فى سنة ١٩٩٠م لدفع تومى روبنسون، وهو نائب عن أركانسو لمنافسة كلينتون على منصب حاكم ولاية أركانسو. (ويروى أنه قال: «سنلقى بكل القضايا فى وجه كلينتون ـ المخدرات والنساء وأى شىء يمكن أن يربكه. وقد نفوز أو لا نفوز، ولكننا سنضربه ضربة تعجزه عن خوض الانتخابات لسنوات».)[٢٥] وفشل المخطط حين أخفق روبنسون فى الفوز بترشيح الجمهوريين، إلا أن العديد من المحافظين يعتقدون أن أتواتر الذى توفى فى مارس ١٩٩١م كان الوحيد الذى يستطيع أن يبقى على كلينتون خارج البيت الأبيض فى انتخابات ١٩٩٢م.

لا شك أن الجمهوريين حاولوا. فظل كلينتون طوال الحملة الانتخابية يشار إليه كمحتال وزان ومستثمر عقارات نصاب وزوج ناشطة نسائية مثيرة للشقاق. ولم يجد أى من هذا نفعا. إذ ركز كلينتون على الاقتصاد، ونفدت جعبة بوش من أية أفكار. وفى أبريل ١٩٩٢م، طرح شعب لوس أنچليس عددًا وافرًا من الاقتراحات من كلينتون وجينجريتش بينما لم تطرح أية اقتراحات من البيت الأبيض. وانخفضت معدلات مصداقية بوش بمقدار ٥٧ نقطة بين حرب الخليج ومؤتمر الجمهوريين فى هيوستون. وكان هذا المؤتمر بمثابة كارثة بكل معنى الكلمة؛ إذ شهد الناخبون اليمين المتعصب للحزب الجمهورى وهو فى حالة هياج عنيف؛ حيث أخذ بوكانن يحث الناس على الاستعداد للحرب الثقافية الوشيكة، وراح پات روبرتسون يهاجم أسلوب حياة كلينتون المنحرف. ومع اقتراب الانتخابات، اقترب أحدنا من مجموعة من الشباب الأنيق وهم خارجون من فيلم بمدينة سولت ليك سائلاً لمن كانوا سيدلون بأصواتهم؟ سكتوا. وفى النهاية أجاب أحدهم وكان من المحاربين السابقين بالخليج

قائلاً: «ربما بوش». عندما يعجز رئيس جمهورى عن استلهام قدر كبير من الحماس من محاربين مورمون من عشاق ستيفن سيجال فهو فى مأزق. كان چورچ بوش الأب يعانى أكبر رابع تدهور فى الأصوات عاناه أى رئيس سبقه، ولم يحصد إلا ١٦٨ من أصوات المجمع الانتخابى فى مقابل ٣٧٠ لكلينتون.

وكانت النتيجة عاصفة من الفرح، لا فى ليتل روك وحدها؛ حيث رقص أنصار كلينتون على أنغام أغنية «لا تتوقف» (عن التفكير فى الغد) لفليتوود ماك، بل أيضًا فى بقاع عديدة من أمريكا المحافظة. وفى نهاية رئاسة بوش، بدا كتّاب محافظون من أمثال چورچ ويل وپول جايجوت كأنهم فرحوا لهزيمة الجمهوريين. يقول توم ديلاى النائب المتشدد من شوجر لاند تكساس: «نعم، هذا شىء رائع!» إذ كان يخشى «أربع سنوات أخرى من البؤس»[٢٦]. وفى «هيريتدج» أقامت جماعة من المحافظين الشبان تعرف باسم «الجيل الثالث» طقسًا قبَليًا غريبًا؛ حيث ملأوا قاعة بأناس يشاطرونهم فكرهم ودخلوا وهم يحملون رأسًا من البلاستيك للرئيس المخلوع على طبق كبير به قصاصات ورق حمراء بلون الدم[٢٧].

هل دمر چورچ بوش الأب دمر كل شىء فعلاً؟ أرقام استطلاعات الرأى توحى بأنه هزم لسببين، أولهما الاقتصاد؛ حيث حقق فى عهده نموًا أبطأ مما حقق فى عهد أى رئيس فى العصر الحديث. لكن هذا لم يكن ذنب بوش. فبمصطلح كرة القدم مرر له ريجان الكرة بركلة قوية فتسلم بوش الرئاسة فى وقت شهد مجموعة عوامل اقتصادية سلبية. والحقيقة أن كثيرًا مما فعل بوش لمعالجة العجز كان منطقيًا تمامًا. أما السبب الآخر فكان روس پيرو، وهو رجل أعمال من تكساس. يكنّ ضغينة لآل بوش ورعب يستبد به من عجز الميزانية. وحصل هذا التكساسى الصغير على ١٩ مليون صوت فى سنة م١٩٩٢، وهو أفضل ما حقق مرشح حزب ثالث منذ ١٩١٢م.

وكان هناك درس آخر كمن فى الاستطلاعات التى تجرى على باب لجان الاقتراع. فمع أن من صوتوا لصالح پيرو قالوا للمستطلعين أنهم يؤثرون كلينتون على بوش، فإن پيرو لا كلينتون هو الذى انتزعهم من الحزب الجمهورى - وكانت اهتماماتهم الأولى كالحنكة المالية وعدم الثقة فى الحكومة اهتمامات محافظة. وانتخب كلينتون بنسبة ٤٣ ٪ من الأصوات، وهى النسبة نفسها التى حصل عليها من قبل دوكاكيس باهت الشخصية. وعلى الرغم من كل جهوده للفوز بأصوات الناخبين من العمال، فإن

كلينتون فاز بالتشبث بقاعدته، فى حين فتت پيرو التحالف الجمهورى. وكما يشير دان بالتس فى كتابه «اقتحام الأبواب» (١٩٩٦م). كان فوز كلينتون فى انتخابات ١٩٩٢م شبيهًا بفوز نيكسون فى انتخابات ١٩٦٨م، حين فتت چورچ والاس قاعدة الديمقراطيين. ولكى يحقق بعض الثبات، كان على كلينتون أن يسترشد بنموذج نيكسون ويجتذب ناخبى پيرو إلى تحالفه[٢٨].

كلينتون: التمدد الزائد لليبرالية

من سوء طالع الديمقراطيين أن انطلق الرئيس الجديد فى الاتجاه المضاد. فنتيجة لعدم خبرته وإرهاقه (حيث رفض أن يأخذ فترة راحة بين الانتخابات وتولى المنصب) وقع كلينتون فى ثلاثة شراك فى غضون أيام من فوزه.

ففى ١١ نوڤمبر، سئل الرئيس المنتخب عما إذا كان سيفى بوعده الانتخابى بأن يسمح للشواذ بالالتحاق علانيةً بالجيش. فجاء رد أحد أبرع المراوغين فى السياسة الأمريكية مباشرًا بشكل مفاجئ، إذ لم يقل سوى «نعم». وكانت النتيجة جحيمًا من النقد من كل أمريكى بالقوات المسلحة تقريبًا، من رئيس الأركان المشتركة كولن پاول هبوطًا إلى أدنى الرتب. وانتهى الأمر بأن تنازل كلينتون وقبل سياسة «لا تسأل ولا تقل»، إلا أن الضرر حدث فعلاً. ولم يستطع كلينتون أن يقنع الناخبين من ذوى الياقات الزرقاء بأنه كان نسخة أخرى من دوكاكيس.

وجاءت غلطة كلينتون الثانية لتثبت ليبراليته غير المعلنة، وتمثلت فى بحثه الهزلى عن حكومة موائمة سياسيًا. وكانت الإيماءة المكشوفة لأى ديمقراطى جديد هى أن يجند بعض الجمهوريين. واستشرفت هيلارى كلينتون مزادًا بين جماعات المصلحة على اليسار بحثًا عن محام عام امرأة. وكان المرشحان السابقان تعرضا للجلد من قبل الجمهوريين من باب الثأر، وكانت المرشح المرهق لكلينتون وزوجته هى چانيت رينو التى كان مؤهلها الأول للمنصب، كما اعترف أنصار كلينتون أنفسهم، هو كونها امرأة.

وكانت الغلطة الأخيرة التودد إلى الديمقراطيين بمجلس النواب ممن كانت شعبيتهم فى تدهور مستمر. وبدلاً من محاولة اجتذاب المعتدلين من الجمهوريين (ربما لم يكن

مستعداً بينهم سوى عشرة من مجلس الشيوخ وحوالى الأربعين من مجلس النواب) استحوزت على كلينتون فكرة الإبقاء على وحدة الديمقراطيين، وهو ما كان يعنى فى النهاية اتخاذ موقف أكثر ليبرالية. وأصبح داعية التحديث مثقلاً بأعباء جسام. يقول أحد أعضاء «مجلس القيادة الديمقراطى» فى رثاء وهو يشير إلى جواد السباق: «أخذنا السكرتارية وربطناها فى محراث»[٢٩].

وما زاد الطين بلة أن الجمهوريون كانوا فى حالة تربص. ففى مجلس الشيوخ، أعلن بوب دول أنه سيمثل الـ ٥٧ ٪ من الناخبين الذين لم يصوتوا لصالح كلينتون - وسرعان ما ابتكر عقبة لعرقلة خطة كلينتون لتنشيط الاقتصاد. وفى مجلس النواب كانت قيادة الجمهوريين لا تزال فى يد روبرت ميتشل وهو معتدل من الحرس القديم، أما الزخم فكان فى يد جينجريتش. وبعد الانتخابات بفترة وجيزة، دعا فريقه لاجتماع عرض فيه طموحاته على شكل جدول:

جينجريتش - المهمة الأولى

الدفاع عن الحضارة.

تعريف الحضارة.

تعليم قواعد الحضارة.

اجتذاب أنصار الحضارة.

تنظيم صفوف النشطاء من أنصار الحضارة.

قيادة قوى الحضارة.

مهمة عالمية أكثر من كونها مهمة أفضل.[٣٠]

وبالتعاون مع هالى باربر الرئيس الجديد للحزب، ركز جينجريتش رسالة الجمهوريين فى سنة ١٩٩٣م على الاشمئزاز من واشنطن. وضاعف باربر من الرسائل البريدية المباشرة، وسرعان ما اكتشف أن أفضل سبل جمع المال التشهير بكلينتون وزوجته.

أثار كلينتون مشاعر الكراهية بين أمة اليمين والتى توارت منذ الحقبة المكارثية. وكان التشهير الذى تلقاه الرئيس يوميّا على الصفحة الأولى من صحيفة وول ستريت جورنال من نوع يختلف عن السخرية المهذبة التى كان بوش يتلقاها من مورين دود على صفحات نيويورك تايمز. ولم يكن تشهير الصحيفة شيئًا إذا قورن بالأحاديث الإذاعية، أو مقالات American Spectator؛ حيث قام ريتشارد ميلون سكايف بتمويل سلسلة مقالات نصف الحقيقة عن علاقات كلينتون الجنسية وصفقاته التجارية الاحتيالية. وزادت الأمور انفلاتًا بعد انتحار ڤينس فوستر المستشار القانونى للبيت الأبيض وأحد أصدقاء هيلارى المقربين فى يوليه ١٩٩٣م بعد نشر افتتاحية فى صحيفة تحاول توريطه فى عمليات الاحتيال. وباع چيرى فالويل مائة وخمسين ألف نسخة من «يوميات كلينتون» وفيها أن كلينتون أمر بقتل من يفضحون دوره فى عملية تهريب كوكايين.[٣١]

كانت هذه حركة المحافظين فى أقبح صورها؛ وبلغت بشاعتها حد أن أسرع أنصار كلينتون بترديد أن رئاسته تعرضت للخطف على يد أعدائه، وأن الصحافة القومية تم تضليلها نتيجة «مؤامرة يمينية ضخمة» (على حد تعبير هيلارى كلينتون) فأخذت تتعقب سلسلة من «أشباه الفضائح» (وهو وصف دأب الفكاهى سيدنى بلومنثال مساعد الرئيس المخلص على إطلاقه على مختلف المغامرات).[٣٢] ولم تكن هذه مسألة يسيرة بالنسبة لوسائل الإعلام، إلا أن فكرة الاختطاف هذه إذا أخذت فى مجملها لا تصمد لسببين، أولهما أن وراء معظم الحكايات الكبرى كان هناك فى العادة قدر من الشبهة أو الانحراف. فهل كان بيع ليال فى غرفة نوم لينكولن أمرًا رئاسيّا؟ وهل يعقل أن يتم رفض طلب صحيفة واشنطن پوست فى سنة ١٩٩٣ بالاطلاع على وثائق عن «وايتواتر» وهى صفقة عقارية اشترى فيها كلينتون وزوجته بعض قطع من الأرض فيما بدا كأنه شروط ميسرة (ولكن ثبت غير ذلك) بالشراكة مع بعض السماسرة المشبوهين من أركانسو؟ ونُصح كلينتون من قبل أعوانه بتسليم هذه الوثائق، ورفضت السيدة الأولى، فاستمرت الضجة.[٣٣] والسبب الآخر لصعوبة إلقاء تبعة مشكلات رئاسة كلينتون على أناس من أمثال سكايف أن الاحتيال ما كان ليؤثر لو كان الرئيس أحسن إدارة دفة الحكم، وهو الأمر الذى لم يحدث فى السنتين الأوليين بصفة عامة.

وكلما كان كلينتون يتحرك باتجاه الوسط، كان يتمكن من تحقيق نجاح فعلى. وبترسيخه جذور سياسته الاقتصادية فى خفض العجز (وبالتالى إرضاء سوق الأسهم) مهد كلينتون الطريق للانتعاش وفائض الموازنة اللذين تحققا فيما بعد. واجتذب الجمهوريين بموقفه من «اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية». وفى ١٩٩٣م، جمع أربعة رؤساء سابقين خارج البيت الأبيض للدفاع عن المعاهدة. وعندما سمع بوش الأب إعلان كلينتون، اعترف بلباقة قائلاً: «الآن عرفت لماذا هو فى الداخل وينظر إلى الخارج وأنا فى الخارج وأنظر للداخل». (٣٤) كما كانت هناك إنجازات ضخمة ثبت أن لها نتائج هائلة، منها الائتمان على ضريبة الدخل المكتسب، ما جعل العمل بالنسبة لفقراء أمريكا أكثر ربحًا من البقاء بالبيت.

ومع ذلك فالانطباع العام كان يوحى بفشل ليبرالى - فوضوى أحيانًا. ففى سنة ١٩٩٤م، بدا كلينتون عاجزًا عن تمرير مشروعات القوانين عبر مجلس النواب. ففشل إصلاح تمويل الحملات الانتخابية. وتم تمرير مشروع قانون خاص بالجريمة ولكن بعد أن منى البيت الأبيض بهزيمة محرجة على يد «الاتحاد الأمريكى للأسلحة النارية» وبعد أن وقع فى فخ جدلى مع المؤتمر الحزبى الزنجى البرلمانى حول إعطاء المحكوم عليهم بالإعدام من الأقليات حق نقض أحكامهم. ولكن ما من شىء جسد هذا الفشل أفضل من الرعاية الصحية.

كان يفترض فى إصلاحات الرعاية الصحية أن تكون نموذجًا لليبرالية الجديدة. فكان من شأنها أن تحل مشكلة ارتفاع تكاليف الرعاية الصحية، وكانت ستسهل على العمال تبديل فرص عملهم، وفى الوقت نفسه كانت ستحل واحدة من أكبر المظالم فى المجتمع الأمريكى، وهى أن أكثر من ٤٠ مليون أمريكى لم يكن يشملهم غطاء من الرعاية الصحية. وكما خلقت «الصفقة الجديدة» جمهورًا ثابتًا من الناخبين لليبرالية روزفلت، كانت إصلاحات الرعاية الصحية ستوجد جمهورًا ثابتًا من الناخبين لفعّالية حكم كلينتون. (٣٥)

كانت هذه النظرية. أما الواقع فكان برنامج «رعاية هيلارى». لم ير أهالى واشنطن شيئًا مثله. ففى الوقت الذى رفع فيه فريق الرعاية الصحية بإدارة السيدة الأولى وإيرا ماجازينر تقريره، كان قد فاق كل ما سبقه من لجان بكل مقياس يمكن تصوره: سواء

من حيث الحجم (كان يضم خمسمائة عضو متفرغ وما لا يحصى من الطفيليين) أو التعقيد (كان ينقسم إلى خمس عشرة «مجموعة عنقودية» وأربع وثلاثين مجموعة عاملة) أو الصرامة (كان عمل رؤساء المجموعات العاملة يعيد تقييمه «مفتشون» و «معارضون») أو الطموح. وفى قلب الخطة المؤلفة من ١٣٦٧ صفحة، وضع اقتراح يقضى بإجبار جهات العمل بكافة أنواعها على تغطية عمالها صحيًا من خلال خطط ضخمة تشرف عليها الحكومة. وسرعان ما هب الجمهوريون يدفعهم أصحاب الأعمال الصغيرة المتقدين غيظًا ليسموا «رعاية هيلارى» بأنها مخطط سوڤييتى الطابع لإخضاع سُبع الاقتصاد للسيطرة الحكومية. ومن الغريب أن أبرع حل خرج به الديمقراطيون الجدد، تقدم به جمهورى هو چون شافى الذى اقترح تقديم خصمًا من ضريبة الرعاية الصحية تصلح كصكوك (كوبونات). إلا أن الديمقراطيين لم يتزحزحوا عن موقفهم ـ فمات برنامج «رعاية هيلارى».

«م.ت. للرب» ورءوس رَش المتطابقة

بحلول انتخابات ١٩٩٤م النصفية، لم يكن كلينتون قد مرر أى تشريع ليبرالى، إلا أن مجرد محاولته أثارت حفيظة حركة المحافظين وأنعشتها فى آن واحد. وكانت كثرة من قاعدة الجمهوريين الشعبية الجديدة تتسم بالتعصب ـ وهو أمر كان على كلينتون أن يتعلم استغلاله ـ ولكنهم كانوا أيضًا أكثر تنظيمًا من ذى قبل. ولكنهم كانوا كثرة فى دولة لا يأبه بالذهاب فيه إلى صندوق الاقتراع إلا قلة قليلة.

فى بعض الحالات، ضمت القاعدة مجندين جددًا. صنعت «رعاية هيلارى» مثلاً مركز قوة محافظ جديد تمثل فى «الاتحاد الفيدرالى للأعمال المستقلة (AFIB)» وهو اتحاد تجارى يمثل ستمائة ألف من المشروعات الصغيرة. وكانت المشروعات الصغيرة هى التى تخلق فرص عمل جديدة فى التسعينيات، وكان الديمقراطيون يخطبون ودها ويصفون الجمهوريين بأنهم حزب أصحاب الأعمال الضخمة. إلا أن مشروع «رعاية هيلارى» الذى كان سيجبر كل أصحاب الأعمال على شراء تأمين لعمالهم، ألقى بـ«الاتحاد الفيدرالى للأعمال المستقلة» فى أحضان معسكر المحافظين. فكان جزءًا ملتهبًا من التحالف المناوئ للقوانين وللضرائب، وكان من أهدافه الخاصة النظام المؤذى

الذى ارتبط بالمحاميين القابعين بالبيت الأبيض : ففى وقت ما فى سنة ١٩٩٥م، أرسل «الاتحاد الفيدرالى للأعمال المستقلة» ٢٦٥ ألف رسالة أسبوعيًا تأييدًا لمشروع قانون يسعى للحد من الدعاوى القضائية الخاصة[٣٦].

كما ساعد «رهاب كلينتون ـ Clinton phobia» على إعادة شحن بعض فرق اليمين الأكثر استقرارًا. ويمكن تصور أن التسعينيات ـ حقبة حوادث إطلاق الرصاص فى مدارس الشمال وحصار مدينة واكو ـ كانت عقدًا كئيبًا على «الاتحاد القومى للبنادق (NRA)» ، إلا أن هذا لم يكن الشعور السائد داخل الاتحاد. ففى ١٩٩١م انتقلت السيطرة على التنظيم من وارين كاسيدى الذى سعى للتفاوض مع أنصار السيطرة على البنادق إلى واين لاپيير الأيديولوچى المتشدد. وسعى لاپيير لإثبات أن أفضل وصفة للنجاح السياسى التشبث بالسلاح. وصب الكثير من المال فى حملات اكتساب العضوية وإعادة بناء آلة التعبئة لـ «NRA» فى البرلمان بمجلسيه. وكان فوزه فى معركة قانون ١٩٩٤م للجريمة الذى حارب ضده بحيوية بالغة، قوة دافعة له؛ حيث غير معارضته من موقفه الثابت بأن «الأسلحة لا تقتل الناس، بل الناس هم الذين يَقتلون» إلى النزاهة المالية، ونشر الاتحاد الرسالة بالفاكس والحوارات الإذاعية، وضمن من أصوات الديمقراطيين الريفيين ما يكفى لرفض المجلس مشروع القانون فى أغسطس ١٩٩٤م. ومع ذلك، تمكن كلينتون من تمرير مشروع قانون للسيطرة على بيع الأسلحة الهجومية، إلا أن هذا أمد «NRA» بحافز لمزيد من الكفاح من أجل المرشحين المؤيدين للأسلحة النارية فى نوفمبر؛ حيث أنفق ٣,٤ مليون دولار على حملات مستهدفة[٣٧].

فى تلك الانتخابات، صوت سبعة من كل عشرة من حملة الأسلحة النارية لصالح الجمهوريين. والحقيقة أن التسعينيات كانت عقدًا أضحت فيه مغازلة «NRA» للحزب الجمهورى أمرًا جديًا. فارتفعت نسبة إسهامات الاتحاد لحملة الانتخابات البرلمانية للجمهوريين من ٦١٪ فى سنة ١٩٩٠م إلى ٩٢٪ فى سنة ٢٠٠٠م. وهذا التأييد كان دائمًا محرجًا للجمهوريين؛ فاستقال بوش الأب من عضويته الدائمة فيه فى سنة ١٩٩٥م ردًا على قول لاپيير : «لو كان لديك شارة [رجال الشرطة]فلديك تصريح من الحكومة بأن ترهب المواطنين الملتزمين بالقانون وأن تخيفهم، بل أن تقتلهم». ولكن

حين وصل الأمر لحشد الناس حول الدوائر الانتخابية وراء قضية المحافظين فإن «NRA» أبدى براعة وضعته فى المكانة الثانية بعد اليمين المسيحى.

كما فاز اليمين المسيحى بصوت جديد يعبر عنه فى التسعينيات. ففى عشاء تنصيب بوش فى سنة ١٩٨٩م، وجد پات روبرتسون نفسه جالسًا على مائدة واحدة مع شاب له وجه فتى من فتية الجوقات الكنسية ولكن له فطرة لى أتواتر السياسية.[٣٨] جاء رالف ريد إلى واشنطن لأول مرة مديرًا تنفيذيًا لمجمع الجمهوريين فى سنة ١٩٨٣م خلفًا لجروڤر نوركويست الأقل نضارة. يزعم نوركويست أن ريد كان منظِّمًا شديد التدقيق حتى أنه علم الجمهوريين الشبان كيف يحرقون العلم السوڤييتى بطريقة صحيحة.[٣٩] ومع أن ريد كان مسيحيًا ملتزمًا، كان من الصعب ألا يلحظ المرء أنه سياسى ملتزم أيضًا. وبمرور الوقت، أطلق عليه زعماء الجمهوريين فى واشنطن «م.ت. للرب» (أى «المساعد التشريعى للرب»). إلا أن براعة ريد الفعلية كانت فى تنظيم القاعدة الجماهيرية. ففى ١٩٨٩م، أقنع روبرتسون بأن بوسعه أن يحيل بقايا العطاء الرئاسى للإيڤانجليكيين إلى ما هو أقدر من «الأغلبية الأخلاقية» التى استنفدت طاقتها، فأنشأ «التحالف المسيحى».

ومن خلال عمله مع زوجته چو آن وعدد من المتطوعين، بنى ريد التحالف من القاعدة إلى القمة، ودفع الناس فى الكنائس لعقد اجتماعات كنسية وترسيم أنصار الفكر الواحد. كما أكد على ضرورة أن تتسع الموضوعات الكنسية بدلاً من اقتصارها على الحديث عن الجحيم واللعنات: «لا بد للحركة المؤيدة للأسرة أن تتحدث عن اهتمامات الناخبين البسطاء فى موضوعات كالضرائب والجريمة والتبديد الحكومى والرعاية الصحية والأمن المالى».[٤٠] واستكمالاً للصورة، كانت نقطة انطلاق التحالف هى المدارس؛ فأقنعوا الآباء بأن أبناءهم يتعلمون فى صالونات الضلال الليبرالى وبأن اليسار يساعد على تدنى مستويات التعليم. ومن خلال الاحتجاج على «التعليم المبنى على النتائج» وما شابه، استهدف التحالف مناطق مدرسية بعينها فى غاراته الانتخابية. وكان ريد - بحماقة تُعلن الآن بعد استعادة الأحداث - يحتفى بهذا التسلل: «أنا أدهن وجهى وأسافر ليلاً. ولن تعرف أن الأمر انتهى إلا وأنت ممدد فى كيس الجثث. لن تعرف إلا ليلة الانتخابات».[٤١]

ومما يدل على براعة ريد فى فن التعبئة والتنظيم أن «التحالف المسيحى» فى بدايته، عقد ١٢٥ اجتماعًا كنسيًا وحقق عضوية قدرها ٥٧ ألف عضو فى آخر سنة ١٩٩٠م، أما فى ١٩٩٧م، فقد بلغ إجمالى اجتماعاته الكنسية ٢٠٠٠ وأعضاؤه ١,٩ مليون. وفى انتخابات ١٩٩٤م، ساعدت جماعة ريد فى الاتصال هاتفيًا بالجمهوريين وأخذ الناس إلى لجان الاقتراع وتنظيم حملات التسجيل وإقناع الناخبين المترددين بضلال كلينتون وزوجته (فى أمريكا فقط، يظل الرئيس الذى يحضر قداس الأحد بالكنيسة بانتظام، ويبدأ كل غداء أسبوعى مع نائبه بالصلاة، عرضة لاعتباره غير متدين بما يكفى). وقام التحالف بتوزيع ٣٣ مليون دليل انتخابى فى سنة ١٩٩٤م، وفاز الجمهوريون بمعظم الدوائر المائة والعشرين المتقاربة التى ركز فيها جهوده. وتبين الاستطلاعات التى تجرى على أبواب لجان الاقتراع فى سنة ١٩٩٤م أن ٨٨٪ من الإيڤانجليكيين البيض المترددين على الكنائس، اعتبرت «القيم الأسرية» عاملاً أول فى اختياراتهم التصويتية.[٤٢]

وأصبح قطاع عريض من هذه القاعدة الجماهيرية يستقى الأخبار من مصدر واحد عُرف عالميًا باسم «رَش». حتى التسعينيات، كان من ابتلاءات الإيمان فى الدوائر المحافظة عدم قدرتهم على رسالتهم إعلان. إذ كان التنظيم الليبرالى يسيطر تمامًا على شبكات التليفزيون وصحف المدن الكبرى، باستثناء وول ستريت چورنال. ولمواجهة ذلك، أنشأ پول ويريش «تليفزيون التمكين القومى» فى أبريل ١٩٩١ م ـ وهو نسخة محافظة من «عالم وين» الذى يبث إرساله من مكتبه ويديره موظفو «مجلس النواب الحر». وأصبح مصقولاً بعض الشىء حين تحول إلى تنظيم مستقل، إلا أن المحطة كان لها طابع باهت مثل «منتدى كاتو» عن مبادئ الحرية و «مجلس البحث الأسرى» عن الأسرة و «الاتحاد القوى للبنادق» عن البنادق.

وجاء التحول الكبير لا من خلال المحطة التليفزيونية بل من خلال الإذاعة ولا سيما من خلال رَش ليمبو. كان ليمبو رجلاً بطينًا من أسرة جمهورية من ميسورى، ولم يحقق فى حياته إلا القليل، إلى أن حصل على فرصة عمل كقارئ للأخبار بإحدى المحطات الإذاعية بمدينة كانساس. وفى ١٩٨٤م، تم تعيينه بمحطة إذاعية فى ساكرامنتو. وحاول ليمبو أن يجدد فى عمله. فلم يكن يأتى بضيوف يتحدثون؛ بل

اكتفى بأن يتكلم هو. وسرعان ما تبين أنه لا يقل موهبة عن پى. چيه. أورورك، فهو مسل ويميني. ولا مجال لإنكار أن ليمبو كان بوسعه أن يصل للقمة. ولم يكن هناك ما يضحك فى وصف شلسيا ابنة كلينتون ذات الاثنى عشر عامًا بعبارة «كلب البيت الأبيض». [٤٣] إلا أن موضوعه الأساسى كان شخصية الرجل البسيط الذى يذهله جنون النظام. لمَ ندفع الضرائب لدعم من يسمون بالفنانين الذين يغمسون الصلبان فى البول؟ لم يتلقى أساتذة الجامعات رواتبهم ليديروا مؤتمرات تتهم الرجال جميعًا بأنهم مغتصبون؟ وكان مستمعيه يتفقون مع آرائه لدرجة أنهم أطلقوا على أنفسهم اسم «الرءوس المتطابقة». كان رش يقدم لهؤلاء الناس أحد أقوى ذرائع السياسة، ألا وهى معرفة أنهم ليسوا وحدهم. وفى أواسط التسعينيات، بلغت نسبة الاستماع إليه ٢٠ مليونًا من الناس فى الأسبوع على ٦٦٠ محطة.

تصور ما لا يمكن تصوره

لو وفر ليمبو المدرج الصوتى لثورة جينجريتش، لكتب موسيقاه «معهد الأعمال الأمريكى» وكاتو ومعهد مانهاتن. يمكنك القول إن ثورة جينجريتش تلخصت فى فكرة واحدة وردت فى كتاب ديك أرمى «ثورة الحرية» (١٩٩٥م) «السوق يتبع المنطق والحكومة غبية». وهو ما يخفف من تعقيد وضراوة الأفكار التى يموج بها اليمين.

قدرت «اللجنة القومية للإنسانية المستجيبة» وهى جهة رقابية يسارية المنحى، حجم إنفاق منتديات الفكر المحافظة على نشر الفكر المحافظ فى التسعينيات بحوالى مليار دولار. وكان على رأس هذه المراكز «معهد الأعمال الأمريكى» الذى دعمه كريس ديموث المحافظ الناشئ الذى أبدى موهبة تعبوية تضاهى موهبة بارودى الأول. وفى نيويورك، قدم معهد مانهاتن الكثير من الأفكار لرودى چيلياني عمدة المدينة. وفى تكساس، كان چورچ بوش الابن، الذى كان يخوض الانتخابات لمنصب حاكم الولاية، يستند إلى الفكر «المحافظ الرحيم» لمارڤين أولاسكى، وهو مسيحى پروتستانتى مقيم فى تكساس (بدأ حياته ماركسيًا يهوديًا من نيويورك) ومايرون ماجنت وهو باحث بمعهد مانهاتن. ونشأ جيل جديد يتقد حماسًا من المحافظين الجدد، وكان العديد منهم من نسل الجيل الأول (يصفهم مايكل لينـد «بالمحافظين الصغار»). وعلى

سبيل المثال، بعد أن رحل بوش الأب عن البيت الأبيض، أمضى بيل كريستول بعض الوقت فى إعداد تقرير عن اليمين لصالح «مؤسسة برادلى» ؛ ثم وضع «مشروع مستقبل الجمهوريين» وهو منتدى فكر صغير تميز بأنه أعند خصوم مشروع «رعاية هيلارى» (أشارت السيدة الأولى السابقة فى مذكراتها إلى كريستول باعتباره الرجل الذى حول مشروعها النبيل إلى مجرد ضجة حزبية فارغة).[٤٤] كما أنشأ مجلة «ويكلى ستاندارد ـ Weekly Srandard» فى سنة ١٩٩٥م، ومنتدى آخر مصغرًا يركز على السياسة الخارجية، و«مشروع القرن الأمريكى الجديد».

سنؤجل مناقشتنا المفصلة لهذه التنظيمات للفصل السادس، لكن هناك نقطة لا يمكن تأجيلها إلى ذلك الحين، وهى إصلاح دولة الرفاهية. يمكن تعريف دولة الرفاهية، بشكل عام، بأنها يمكن أن تشمل كل شىء، من دعم الإسكان إلى كوبونات الغذاء؛ وفى أواسط التسعينيات أنفقت الحكومة حوالى ٢٣٠ مليار دولار فى السنة على[٤٥] خطط متنوعة لمساعدة المحتاجين، وذهب نصف هذه المخصصات لدعم الرعاية الصحية. كان لب برنامج دولة الرفاهية الذى تعارك الساسة حوله هو «إعانة الأسر التى تعول أطفالاً»، حيث تم صرف ١٢,٥ مليار دولار نقدًا على الأمهات الوحيدات. وفى سنة ١٩٩٤م، كان البرنامج يغطى ١٤ مليون شخص فى خمسة ملايين أسرة. فمن بين كل عشرة أطفال أمريكيين، كان هناك طفل واحد يتلقى إعانة البطالة، ومعظم هذه النسبة من الزنوج (٤٠ ٪) ثم اللاتين (٢٠ ٪).

ظلت دولة الرفاهية لعبة اليمين المفضلة لمدة طويلة. ففى الثمانينيات، احتج رونالد ريجان على «ملكات دولة الرفاهية» لاستغلالهن نظامًا وضع منذ ١٩٣٥م لرعاية الأرامل. وسعى كل من ريجان وبوش الأب لدفع من يتلقين إعانة البطالة للبحث عن عمل، ولكنهما لم يضغطا بشدة فى هذا الاتجاه. وهكذا تُركت القضية لحكام الولايات من الجمهوريين ـ ومن أبرزهم تومى تومسن حاكم وسكونسن الذى خفض مدفوعات إعانة البطالة وأجرى تجارب عديدة (منها معاقبة الأمهات اللائى ينجبن فى أثناء تلقى إعانة البطالة). وفى سنة ١٩٩٢م، استعار كلينتون إحدى هذه الأفكار واقترح تحديد مدة زمنية لرواتب الإعانة؛ فبعد سنتين من بدء الصرف يتعين على الأمهات أن يعملن ـ فى أعمال توفرها الولاية إن لزم الأمر.

ولكن كانت هناك أفكار أكثر جرأة عن «المسئولية الشخصية» تداولتها أوساط الجمهوريين. وصدر كتابان مهمان فى سنة ١٩٩٣م يتهمان الستينيات بأنها أصل كافة الشرور، أحدهما لمايرون ماجنت «الحلم والكابوس»، والآخر لمارڤن أولاسكى «مأساة العطف الأمريكى». ونشر بيل بينيت كتابه «الحط من مكانة أمريكا: دفاعًا عن ثقافتنا وعن أطفالنا» (١٩٩٢م) ثم أعقبه بكتابه الذى حقق مبيعات كبيرة «سفر الفضائل»، (١٩٩٣م)، ولو أنه تبين بعد مدة طويلة أنه جمع بعض المال بصورة غير فاضلة من آلات القمار. وكانت الرقابة المشددة التى فرضها چيلياني فى نيويورك لمنع الجرائم الصغيرة، مثل الكتابة على الجدران والتسول، على أساس أنها تشجع على ارتكاب جنح أخطر تقوم على إستراتيچية «النوافذ المهشمة» التى وضعها كل من چورچ كيلينج وچيمز ك. ويلسون.[٤٦]

أما من ترك أكبر أثر على الجدال حول دولة الرفاهية، فكان تشارلز موراى. اشتهر موراى بكتابه «منحنى الجرس ـ The Bell Curve» الذى كان أفضل الكتب مبيعًا فى سنة ١٩٩٤م، والذى ذهب فيه إلى أن الفجوة فى درجات الاختبار المعيارية بين مختلف الفئات العرقية تشتمل على عنصر چينى. ولكنه صنع اسمه أولاً كخبير فى الفقر. ففى كتابه «التراجع» (١٩٨٤م) يرى أن الحكومة تزيد المشكلة تعقيدًا، واقترح من باب «التجريب الفكرى» أن تتخلص أمريكا من نظام دولة الرفاهية لمن هم فى سن العمل. وفى أكتوبر ١٩٩٣م، فى مقال نشر فى وول ستريت چورنال بعنوان «الطبقة الدنيا البيضاء الناشئة» حول التجريب الفكرى إلى سياسة مقترحة مفادها أن الحكومة ينبغى أن تتوقف عن صرف إعانات للمرأة التى تنجب خارج إطار الزواج.[٤٧] فأسر الأمهات العزباوات ليست وحدات اقتصادية قابلة للنمو، فلماذا تجد التشجيع؟ وعلى الرغم من تركيز موراى على البيض، فإن فكرته سرعان ما أطلقت عاصفة من الغضب. فهذا عدوان على «المجتمع العظيم» أكبر من التمرد الأصلى للمحافظين الجدد. وكان دانييل پاتريك موينيهان الذى كان أول من سلط الضوء على مشكلة تفكك الأسر الزنجية لا يزال يعتقد أن المساعدة الحكومية هى الحل. وكان موراى يرى أن الخطط الاجتماعية الحكومية غير فعالة بل قاسية ولا أخلاقية. ويبقى السؤال: هل كان جمهور الأمريكيين مستعدًا لهذا النوع من الأفكار؟

جينجريتش: تمدد الجمهوريين

فى يوم افتتاحه فى سنة ١٩٩٥م، انعقد مجلس النواب الرابع بعد المائة ليختار رئيسًا جديدًا له. وحين أعلن اسم نيوت جينجريتش، اندفع إلى داخل القاعة وارتقى المنبر بخيلاء بطريقة ملكية، وصاح أحدهم قائلاً: «إنه عالم نيوت». (٤٨)

لم يكن الجمهوريون سيطروا على المجلس منذ أربعين سنة. واقتنص جينجريتش نصرًا من العدم. ففى نوفمبر ١٩٩٤م، فقد اثنان وخمسون من الديمقراطيين، منهم رئيس المجلس توم فولى، مقاعدهم بمجلس النواب؛ وفقد عشرة آخرون مقاعدهم بمجلس الشيوخ تاركين السيطرة للجمهوريين. وفى هذه المرة كان انتصارًا فعليًا للمحافظين قائمًا على أساس محافظ. وكان «العقد مع أمريكا» الذى وضعه الجمهوريون بمجلس النواب وثيقة غير عادية ـ قائمة بعشر سياسات مقترحة لقيت تأييد أكثر من ثلاثمائة مرشح جمهورى وتنتهى بوعد: «اطردونا لو خالفنا هذا العقد». (٤٩) وكان العقد تجسيدًا للفكر المحافظ المناوئ للحكومة. وكان يتضمن تعديل الموازنة وحدودًا زمنية وإصلاح دولة الرفاهية. وكان إصرار جينجريتش على «قضايا الستين ٪» والتى حظيت بتأييد الأغلبية، يستبعد القضايا الاجتماعية التى تثير الانقسام كالإجهاض والصلاة بالمدارس. وكان أفضل ما فاز به اليمين المسيحى، ائتمان من ضريبة الدخل قدره خمسمائة دولار لكل طفل لإعانة الأسر.

والآن بدأ جينجريتش رئيس مجلس النواب يرى نفسه رئيس وزراء جمهورى، فهو ليس الزعيم الفعلى لحزبه فى المجلس الأدنى [مجلس النواب] وحسب، بل حاكم البلاد. وكان الجمهوريون يرون أن مجلس النواب يستعيد الدور الذى ارتآه واضعو الدستور فى صوغ السياسة الداخلية. كان هذا هو تمامًا الشعور فى الأشهر الثلاثة الأولى من دورة مجلس النواب؛ حيث أخذ جينجريتش يقدم موجزات صحافية كل يوم ويدخل مشروعات قوانين إلى المجلس على عجل، بل إنه دفع كلينتون فى أبريل إلى الإصرار الواهن على أن للرئيس «دورًا».

ومع ذلك كان جينجريتش يتجاوز حجمه. ولم تكن هذه المرة حالة حنث بالوعود، فهو على عكس كلينتون بدأ عهده كما وعد. بل كانت حالة من سوء تأويل مهام

منصبه. ففى نوفمبر ١٩٩٤م، كان معظم الأمريكيين قد صوتوا ضد بيل كلينتون، ضد رجل يقص شعره بمائة وثمانين دولارًا ومتزوج بامرأة اشتراكية، لا لصالح راديكالية محافظة. وكان انتزاع أنياب جينجريتش فى العامين التاليين صورة مكررة من هزيمة كلينتون فى ٩٢ ـ ١٩٩٤م. إذ مر هو أيضًا بتحديات إجرائية فى مجلس النواب، وواجه هو أيضًا أسئلة حول أخلاقه الشخصية؛ كما شُهِّر به هو أيضًا لتطرفه، وهزم أيضًا من قبل معارضة سياسية فعّالة.

كان جينجريتش وهو فى منصبه يتصرف غالبًا كقائد ميليشيّا قضى سنوات يقتات على الفتات فى الغابة حتى يتخم نفسه حين تنفتح له أبواب المدينة. والرجل نفسه الذى نكل بچيم رايت شر تنكيل بسبب عقد نشر كتاب، لم يجد غضاضة فى قبول أربعة ملايين دولار دفعة مقدم من روبرت مردوكة لنشر مذكراته (ولو أن الأمر انتهى دون توقيع أى عقد بعد ضجة هائلة). كان جينجريتش مصابًا بإسهال كلامى عن خططه وأفكاره وإدارته (لخص كل شىء فى أربعة أحرف: «رإ ت م» : رؤية، إستراتيچية، تكتيكات، مشروعات) هزت مكانته كرجل دولة فى حكومة. وصدر فى عهده كتاب بعنوان «قولوا لنيوت أن يسكت ـ Tell Newt to Shut UP»، (١٩٩٦م).[٥٠] لكن هذا كان ينطبق على كثرة من أتباعه. فمثلاً أطلق ديك أرمى على بارنى فرانك عضو مجلس النواب الشاذ اسم «بارنى فاج» (المنهوك) فى حديث إذاعى، وقال لهيلارى كلينتون «التقارير عن مفاتنك مبالغ فيها». ومع أن الجمهوريين فى مجلس النواب نجحوا فى تمرير تسعة أجزاء من عشرة من عقدهم ولم يخفقوا إلا فى المدد الزمنية، فإن أمورهم كانت أبطأ فى مجلس الشيوخ الذى كان يديره خصم جينجريتش القديم بوب دول. فرفضت هذه الهيئة التشريعية الأعلى تعديل الموازنة ولو بفارق صوت واحد؛ كما رفضت خططًا تقضى بإعطاء الولايات السيطرة على أمور كوجبة الغداء المدرسية. وعندما تقدم الجمهوريون فى مجلس النواب بخطة للحد من زيادة مخصصات مشروع الرعاية الصحية «ميديكير» بالغ الديمقراطيون قليلاً فى إدانتهم إياهم على «خفض» مخصصات الخطة، فانهارت المفاوضات مع الرئيس حول الموازنة.

وبفشله كرئيس ليبرالى فى الهجوم، أعاد بيل كلينتون تقييم ميوله السياسية الدفاعية. وجاءت نقطة التحول فى ١٩ أبريل ١٩٩٥م، أى فى اليوم التالى لإصراره

الضعيف على أن الرئاسة لا يزال لها دور؛ حيث فجر متطرف يميني قنبلة في أوكلاهوما سيتي فقتل ١٦٨ شخصًا. وفي كلمة حفل تخرج بجامعة ميتشيجان ستيت في الخامس من مايو، هاجم «الميليشيات وكل من يظنون أن الخطر الأكبر على الحرية مصدره الحكومة». وفي فقرة ربما كان المستهدف فيها الجمهوريين في مجلس النواب حذر قائلاً: «ليس من الوطنية أن تكره بلادك أو أن تدعي أنك تحبها ولكنك تكره حكومتك». (٥١)

وفي تحوله نحو الوسط بعون من مستشاره الجديد ديك موريس، اتبع كلينتون إستراتيجية «التثليث» التي يفترض أن تؤكد على استقلاليته عن الجمهوريين والديمقراطيين على السواء. (٥٢) ففيما يتعلق بالموازنة، على سبيل المثال، قال كلينتون إنه يؤيد خفض النفقات وموازنة متوازنة (على خلاف حزبه المسرف في النفقات)، ولكنه قدم أيضًا عرضًا مبهرًا يوحي بأنه يناضل من أجل الدفاع عن برنامج الرعاية الصحية «ميديكير» (على خلاف الجمهوريين بفتور مشاعرهم المعهود). وفي الصيف، تصور الكل أن الموازنة لم يتبق لصدورها سوى سرد التفاصيل، ولكن شهورًا انصرمت في المحكات. وفي أكتوبر اضطرت الحكومة للإغلاق بسبب نقص الأموال، وكذلك فعلت مرة أخرى في ديسمبر.

تصور أتباع جينجريتش بغبائهم أن هذا في صالحهم (إذ كان كلينتون اعترض على مشروعات قوانين الموازنة التي تقدموا بها، والتي كان من شأنها الإبقاء على الحكومة مفتوحة.) ولكن بعد سنة كاملة من ضرب الحكومة بلا هوادة على يد جينجريتش، ألقى معظم الأمريكيين باللائمة على رئيس الكونجرس المستبد. وكان جهاز الاستشعار لدى كلينتون - أي قدرته على الإحساس بما يريد الشعب الأمريكي أن يسمع - بدأ يعود. وفي ليلة إغلاق الحكومة، هاجم أرمي قائلاً: «لو تم تمرير موازنتك فإن الآلاف من الفقراء سيعانون بسبب التخفيضات التي فرضتَ على خطة الرعاية الصحية. لن أوقع على هذه التخفيضات ولا يهمني إن انخفضت شعبيتي إلى ٥ ٪ في استطلاعات الرأي». وكان التحول من «ميديكير» إلى «ميديكيد» شيئًا يتسم بالنفاق إلى حد ما، ولكنه بهر كل الحضور، لا سيما آل جور الذي غمغم بشيء عن ضرورة إيضاح أنهم ما كانوا ليستسلموا؛ حتى إن هبطت شعبية كلينتون إلى الصفر. فأجابه كلينتون قائلاً: «آسف يا آل؛ لو هبطنا إلى ٤ ٪ سنستسلم». (٥٣)

وأيّا كان جهاز الاستشعار السياسى لدى جينجريتش فقد كان مطفأ. ففى نوڤمبر شكا للصحافة أنه أجلس فى الجزء الخلفى من طائرة الرئاسة فى طريق العودة من جنازة إسحق رابين، ولذا فإن صحيفة نيويورك دايلى نيوز وصفته بالطفل الباكى. وفى المؤتمر الجمهورى فى السنة التالية فى سان دييجو، اختزلت مكانة جينجريتش إلى مستوى إلقاء محاضرة عن مباهج الكرة الطائرة على الشاطئ.[٥٤]

وكان إصلاح برنامج دولة الرفاهية أكبر اختبار للتثليث. فاعترض كلينتون على مشروعى قانونى الإصلاح الأولين من مجلس النواب، لأنهما تم ضمهما إلى التخفيضات المزمع إجراؤها على «ميديكيد» والتى كان غير راض عنها. وفى أغسطس ١٩٩٦م أرسل الجمهوريون مشروع إصلاح للرئيس - وتحدوه أن يوقعه (لو حرن، لأمَدَّ حملة دول الانتخابية الرئاسية الضعيفة بذخيرة). وكان هذا مشروع قانون أقوى كثيراً مما كان سيعجب كلينتون.[٥٥] بل إنه حدد مدة زمنية لدعم الحكومة للأمهات العزباوات الفقيرات. ومن خلال الاستشهاد باحتمال بقاء حوالى مليون طفل بلا غذاء ولا مأوى، حثه الليبراليون بالبيت الأبيض، ومنهم زوجته ألا يوقعه؛ إلا أن حشداً من «مجلس القيادة الديمقراطى» ومنهم جور، أخذوا يدفعون فى الاتجاه المضاد. وقام كلينتون بتوقيعه، وصدق بذلك على واحد من إنجازات المحافظين الكبرى فى عهد رئاسته. وفى سنة ٢٠٠٠م انخفض عدد المستفيدين من دولة الرفاهية بمقدار ٧,٥ مليون شخص.

وحتى لو كان كلينتون اعترض على إصلاح دولة الرفاهية، لما استطاع إنقاذ دول فى نوڤمبر ١٩٩٦م. فالاقتصاد كان فى صف الرئيس، وشرع كلينتون فى جمع المال وإنفاقه مبكراً (محبطًا بذلك أية تحديات مزعجة للانتخابات التمهيدية). فواجه دول سباقًا تمهيديّا قاسيّا. وقفز روس پيرو من جديد ليقسم الأصوات المعادية للحكومة، وبدت الشيخوخة على دول كما حدث مع بوش الأب قبل أربع سنوات. وكان قد دخل مضمار السياسة فى كانساس فى عهد روبرت تافت. وكان دول بلباقته وسرعته فى الكلام رجلاً مسليّا فى الجلسات الخاصة. وكان سجله العسكرى سيحسب له لو جاء قبل ذلك بعشر سنوات أو ربما بعد ذلك بعقد من السنين. ومع أن حركة المحافظين احتشدت حول دول بولاء أكبر قليلاً مما فعلت مع جورج بوش الأب، فإن الاستجابة

كانت منبعثة من الإحساس بالواجب لا من حس عاطفى . والتزم كلينتون خطًا وسطيًا زينه بسلسلة من الوعود الصغيرة، كخفض الضرائب بسبب مصروفات الدراسة بالجامعات، ونأى بنفسه بقدر مناسب عن الديمقراطيين بمجلس النواب . وحقق فوزًا سهلاً وحصل على ٣٧٩ صوتًا بالمجمع الانتخابى، أى بمقدار تسعة أصوات أكثر مما حصل عليه فى سنة ١٩٩٢م .

لم تكن انتخابات ١٩٩٦م فوزًا ساحقًا لليبرالية، فقد فاز بيل كلينتون بفترة رئاسة ثانية بنسبة ٤٩ ٪ من الأصوات، أى بعشر نقاط أقل من نيكسون وريجان فى فترتهما الثانية . وفى مجلس الشيوخ، فاز الجمهوريون بمقعدين إضافيين فصارت لهم أغلبية قدرها ٥٥ مقعدًا فى مقابل ٤٥، وهو رقم مذهل إذا عرفنا أن كلينتون ورث مجلس شيوخ يضم ٥٨ ديمقراطيًا . وفى مجلس النواب، استعاد الديمقراطيون بضع مقاعد لكن الجمهوريين احتفظوا بأغلبيتهم . يقول مايكل بارون فى استعراضه للانتخابات على صفحات «حولية السياسة الأمريكية ـ Almanac of American Politics» إن انتخابات ١٩٩٦م عززت الدروس المستفادة من انتخابات ١٩٩٢ و١٩٩٤م والتى تبين أن ديمقراطيًا جديدًا يمكن أن يهزم جمهوريًا قديمًا على المستوى الرئاسى وأن الجمهوريين الجدد يمكن أن يهزموا الديمقراطيين القدامى على الصعيد البرلمانى .

كما أن التمدد ـ بالمعنى الأيديولوچى ـ الذى حققه جينجريتش طوال سنتين، أفرز لحمًا أحمر أكثر مما أفرزه كلينتون . وفى الفترة ٩٤ ـ ١٩٩٦م، تم خفض الإنفاق النسبى لأول مرة منذ ١٩٦٩م .[٥٦] وكان هناك إصلاح لقوانين دولة الرفاهية بالطبع . وكما أشار مالكم جلادويل فى صحيفة واشنطن پوست : دخل الديمقراطيون معركة من أجل أحد أركان «الاتفاق الجديد» : «استسلم أنصار الفعّالية القديمة تجاه الفقراء عن طواعية، وسط لا مبالاة من أولئك الذين لم يعودوا يؤمنون بأنهم يعملون لهم» .[٥٧] وعلى الصعيد الفكرى، كان الزخم لا يزال مع اليمين إلى حد كبير .

دوايت كلينتون

وسط معركة ١٩٩٣م على الموازنة، اشتكى كلينتون من أنه لم يكن يود أن يتذكره

أحد بأنه «جمهورى من عينة أيزنهاور» .[٥٨] وهو ما حدث فعلاً فى فترة رئاسته الثانية، وكانت أمريكا بصورة عامة سعيدة بذلك .

كانت التسعينيات عقد اضطراب سياسى غير معهود؛ ففى ١٩٩٢م تركت خسارة جورج بوش الأب الحزب الجمهورى بأقل حصة من الأصوات الشعبية خلال ثمانين سنة . وبعد سنتين، تربع بيل كلينتون على قمة أسوأ أداء لأى حزب فى سدة الحكم خلال ما يقرب من نصف قرن . فهزم بوش بالتعهد بقيادة حكومة أنشط؛ وهزم جينجريتش كلينتون بالتعهد بقيادة حكومة أضيق نطاقًا .[٥٩] ولكن بعد كل هذا الاضطراب، استعادت أمة البين بين توازنها فى صورة رئيس من الديمقراطيين الجدد يحاصره من كل الجوانب كونجرس جمهورى . لم تكن الصورة «محافظين مع إجراءات ثورية» ـ حسب الصيغة المثلى للحكومة فى رأى ديزرائيلى ـ بقدر ما كانت رجالاً ديمقراطيين بإجراءات جمهورية .

كان هناك سببان لضعف الفترة الثانية من رئاسة كلينتون، أولهما أنها لم تضف إلا القليل من القوانين الجديدة المهمة . وأهم إنجازات كلينتون ـ اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية وإصلاح دولة الرفاهية وخفض العجز ـ كلها لها تقديرها؛ ولكنه بالغ فى نتائجها وما يصحبها من سلام ورخاء . ولكن كان لا بد من بذل مزيد من الجهد لتثبيت هذه الإنجازات، وشرع كلينتون فى البحث عن دور ثانوى له فى مجال السياسة الخارجية، فحاول أن يقر السلام فى البلقان والشرق الأوسط وأيرلندا الشمالية .

يحاجج چو كلاين فى «الطبيعى» إلى أن الأشياء الصغيرة التى حققها كلينتون (الائتمان على ضريبة الدخل المكتسب والقيود على مبيعات الأسلحة للأفراد والقوانين البيئية وغير ذلك) ترقى مجتمعةً إلى مستوى الإنجاز الضخم . ولكن مهما كانت ضخامة هذا الإنجاز، فإنه ليس إنجازًا ليبراليًا كبيرًا . كان كلينتون يشبه أيزنهاور الذى كانت الابتسامة فلسفته، وأصبح ما أراد له الشعب أن يكون، وعثر فى «الطريق الثالث» على عقيدة رحبة تناسبه . وفى سنة ١٩٩٨م وسط عاصفة مونيكا، عرف كلينتون رئاسته بالكلمات التالية :

> تجاوزنا الجدل العقيم الذى يثيره القائلون بأن الحكومة هى العدو والقائلون بأن الحكومة هى الحل . إخوانى الأمريكيين، وجدنا طريقًا ثالثًا . فلدينا

أصغر حكومة منذ ٣٥ سنة، ولكنها أكثر الحكومات تقدمية. لدينا حكومة أصغر ولكن لدينا أمة أقوى.[٦٠]

معنى هذه الفقرة يتوقف على ما تؤكده. فقد يلتقط الليبراليون كلمة «تقدمية»، وقد يتوقف المحافظون عند كلمتى «أقوى» و «صغيرة». ولكن حين ننظر إلى الجوهر، نجد أن المحافظين هم الذين فازوا بالرهان. فربما اختفى العجز وربما تم سداد حصة السلام، لكن كلينتون لم ينفق الفائض على برامج ليبرالية جديدة كبرى؛ بل ادخره تحت البلاطة القومية. كانت هناك زيادة فى قواعد «التدخل» ولا شك، وركز المتخصصون فى إدارة كلينتون على تفتيت مايكروسوفت، ولكنهم أخذوا جانب عدم التدخل تجاه سُعار الدمج فى أواخر التسعينيات. فكان أول ديمقراطى يتولى الرئاسة لفترتين منذ جيل، يشعر بالسعادة لأنه أعاد ضبط دفاتر الحكومة، وهو شىء كان سيدهش روزفلت وچونسون، ناهيك عن ماكجفرن الملتحى الذى جاء من ييل إلى أوستن فى سنة ١٩٧٢م ليناضل من أجل «المجتمع العظيم».

والسبب الآخر الذى جعل فترة رئاسة كلينتون الثانية تبدو ضعيفة هو مونيكا لوينسكى. هناك الكثير من الأحبار والأوراق تم تبديده على علاقة كلينتون مع المتدربة وإنكاره هذه العلاقة، ومحاولة الجمهوريين الفاشلة تجريح الرئيس. كانت البداية حين قام كلينتون بتعيين مستشار قانونى مستقل للنظر فى «وايتواتر» بعد أن رفض طلب صحيفة واشنطن پوست الاطلاع على الوثائق. وأعد المستشار الأول روبرت فيسك تقريرًا فى يونيه ١٩٩٤م مبرئًا كلينتون وزوجته من بعض التهم، ولكن استبدل كينيث ستار به وهو شخصية أكثر تعصبًا. ويشير المخلصون لكلينتون إلى أن ستار بصلاته الوثيقة بجماعات محافظة عدة، حاد بالتحقيق بعيدًا عن نقطة البدء، ولهم الحق فى قولهم. فانتهى التحقيق فى صفقة عقارية فى أركانسو بمناقشة سلسلة من اللقاءات الجنسية الخاصة بالمكتب البيضاوى. وكانت التكلفة الإجمالية خمسين مليون دولار دون إثبات إقدام كلينتون على أى إجراء غير قانونى. ويرد المحافظون على ذلك بأن ستار كشف كذب الرئيس («أنا لم تكن لى أية علاقة جنسية بهذه السيدة»)؛ وأدى تصريح كلينتون شبه الصادق إلى حرمانه ممارسة المحاماة فى أركانسو.

وعلى المدى الأبعد، كانت مغامرته مع مونيكا لها نتائج بعيدة على كلا الجانبين. ففى حالة بيل كلينتون، فإنه ظن مرة أخرى أنه يستطيع الإفلات بما يفعل (فى المستقبل، حيث ارتكب الغلطة نفسها فى عفوه المبهرج عن مارك ريتش فى آخر أيام رئاسته). وكان على خطأ تمامًا فى ذلك. وإذا كان الأمريكيون قد وقفوا بجانبه، فإن هذا يرجع فى المقام الأول إلى تزايد فقدانهم الثقة فى الجمهوريين. والآن أصبح رئيسًا ناجحًا فى الأحاديث الإذاعية الليلية المتأخرة وفى النكات عن السيجار وعن محاولة إعادة تحديد معنى كلمة «is». كما أنه أضر بآل جور؛ ففى سنة ٢٠٠٠م، كانت أنماط التصويت تسير بمحاذاة نسب تصديق الناس لكلينتون، وكان بوش يضرب على الوتر الحساس فى حديثه عن إعادة الكرامة للبيت الأبيض.

وعلى الجانب الآخر، فقد حشد التطرف الذى أبداه جناح القيم الأسرية فى الحزب الجمهورى، الديمقراطيين وراء قضية كلينتون وأثار حفيظة العديد من المستقلين. وهل كانت محاولة تجريح الرئيس مبنية على الجرائم الكبرى والأعمال الشريرة التى نص عليها الدستور؟ أم على الطموحات السياسية لليمين الذى يعتبر نفسه أرفع خلقًا من غيره؟ فالتظاهر بالطهارة الأخلاقية من جانب الجمهوريين، كان فى نظر معظم الأمريكيين أقبح من مغامرات كلينتون. ولم يكن ذيل كل من نيوت جينجريتش وهنرى هايد وبوب ليفنجستون طاهرًا تمامًا؛ فماذا كانوا يقصدون بمطالبتهم بتنحى الرئيس؟

تمخضت جلسات الاتهام عن تزايد الخوف من تحول الجمهوريين إلى مجموعة من المتعصبين المتمسكين بقيم الجنوب وبالتدين أكثر من اللازم. وكان المستقلون يحبون أن تكون نزعتهم المحافظة على الطريقة الريجانية. وارتبطت ذكرى المؤتمرين الرئاسيين الجمهوريين الفاشلين فى سنة ١٩٩٢ و١٩٩٦م باليمين المسيحى المتأنق، وصخب پات بوكانن. ويرجع نجاح «العقد» مع أمريكا فى جزء منه إلى تحاشى القضايا الدينية، ولكنها سرعان ما أطلت برأسها من جديد. ففى مايو ١٩٩٥م، استضاف «التحالف المسيحى» لقاء عرف باسم «عقد مع الأسرة الأمريكية» اكتظ بزعماء جمهوريين وتباهى فيه رالف ريد قائلاً: «أخيرًا حققنا ما طال انتظاره: مكان على المائدة وإحساس بالشرعية وصوت فى الحوار الذى نسميه ديمقراطية».

لا شك أن هذا النوع من الكلام كان يلهب حماس بعض المحافظين فى الجنوب، ولكنه كان يخيف المستقلين، لا سيما الجماعات المناهضة للحكومة ممن صوتوا لصالح بيرو. وحاول ريد التخفيف من تأثير رسالة روبرتسون، ولكنه كان لا يزال تحت إمرة رجل بعث رسالة يطلب فيها التبرع قائلاً إن ناشطات الحركة النسوية يشجعن النساء على «ترك أزواجهن وقتل أطفالهن وممارسة الدجل والشعوذة وتدمير الرأسمالية والتحول إلى سحاقيات». [٦١] وفى التسعينيات، ازداد تحفز المحافظين إزاء مسألة الإجهاض، فانقلبوا على كولن پاول بسبب آرائه المؤيدة لحق المرأة فى الاختيار بين الاحتفاظ بحملها أو الإجهاض بعد أن كان موضع إطراء شديد باعتباره مخلِّصًا جمهوريًا محتملاً فى سنة ١٩٩٦م. فى ١٩٩٣م، بينت استطلاعات الرأى التى كشفت عن عدم ثقة ناخبى بيرو فى واشنطن وفى الحكومة الكبيرة، بينت أيضًا أنهم يؤيدون اختيار الإجهاض. [٦٢] وكان الثمن الذى دفعه الجمهوريون بسبب اشتهارهم بالتعصب فى الولاية التى أعطت ريجان مستقبله السياسى، أكبر منه فى أى مكان آخر.

فك «حزام الشمس»

كان الحزب الجمهورى قد تمكن من إقامة تحالف ناجح للغاية بزعامة رجلين من كاليفورنيا هما نيكسون وريجان. وسرعان ما حشد «تحالف حزام الشمس» المزيد من ولايات الجنوب والغرب حول كره الحكومة الاتحادية ـ كره قائم على الاقتصاد فى الغرب وعلى العرق فى الجنوب. وكان هذا تحالفًا اعتمد على جناحين يتجاهل كل منهما الآخر. فربما كان ريجان، على سبيل المثال، يتحدث كجنوبى متمسك بالفضيلة حين الضرورة، ولكنه كان يعيش حياته كأحد نجوم هولى وود. وفى السنوات الاثنتى عشرة التى فصلت بين توقيع ريجان حاكم كاليفورنيا على قانون الإجهاض الليبرالى فى الولاية فى سنة ١٩٦٨م وانتخابه رئيسًا، تم إجراء ١,٤٤٤,٧٧٨ عملية إجهاض فى الولاية. [٦٣] إلا أن نسيان أشياء كهذه كانت له فوائده السياسية. ففى التسعينيات تحررت كاليفورنيا عن بقية حزام الشمس الجمهورى، وحاد الحزب القومى بدرجة كبيرة عن النزعة الفردية الغربية فى اتجاه أخلاقية الجنوب.

اكتشف الجمهوريون أن الورقتين اللتين ربحوا بهما كثيرًا فى الجنوب ـ العرق والدين ـ كانتا وبالاً عليهم فى «الولاية الذهبية» . ومن الغريب أن الرجل الذى تلقى اللوم عن ورقة العرق كان معتدلاً للغاية . فى صيف ١٩٩١م، وقبل أن يبدأ بيل كلينتون فى سحر الناس فى بيلتمور فى لوس أنچيليس، ذهب الحاكم پيت ويلسون إلى حفل خيرى فى ساكرامنتو . واعتذر الزعيم الجمهورى روس چونسون عن غياب بعض زملائه «رجال الكهف» أورانج كاونتى المتشددين . وقال چونسون للحاكم : «ذهبوا يصطادون بومًا مرقطًا»، وأضاف مازحًا أن «البوم طعمه أفضل إذا شوى على حطب كاليفورنيا الأحمر» .(٦٤) حينئذ كان ويلسون الجمهورى البراجماتى التقليدى عالقًا فى حرب ضروس مع جناح اليمين بحزبه وليس حول البيئة وحدها . كان «رجال الكهف» يرتابون فيه حين كان عضوًا بمجلس الشيوخ لتأييده خيار الإجهاض . انقلبوا عليه بكل شراسة فى سنة ١٩٩٠م بعد أن انتخب حاكمًا وقرر رفع الضرائب عقب اكتشافه وجود فوضى كبيرة فى الموازنة . وفى الوقت نفسه، احتشد الديمقراطيون وراء كاثلين براون وزيرة مالية الولاية التى كانت تتفاخر بعائلتها (شقيقة چيرى وابنة پات) وبسياستها الوسطية وبمظهرها المريح كأم . وكانت كاليفورنيا فى حالة فوضى : سيول فى الوادى الأوسط فى سنة ١٩٩١م وحركات عصيان فى لوس أنچيليس فى سنة ١٩٩٢م . وفى سنة ١٩٩٣م، حققت براون فوزًا كبيرًا فى استطلاعات الرأى لدرجة افترض معها أن ويلسون لن يخوض الانتخابات .

ولكنه خاض حربًا خلفية ركز فيها على مسألتين هما عقوبة الإعدام والهجرة . ونظرًا لأن ويلسون ظل لمدة طويلة يتذمر من الأموال التى كان على الولاية أن تنفقها على المهاجرين غير الشرعيين، فإنه أيد الاقتراح ١٨٧ الذى يقضى بوقف صرف الإعانات للأغراب غير الشرعيين . وكانت النتيجة نجاحًا على المدى القصير؛ حيث وافق الناخبون البيض على الاقتراح ١٨٧ (ولو أنه رفض فى المحاكم) وأعادوا انتخاب ويلسون فى سنة ١٩٩٤م . والحقيقة أن واحدًا من كل أربعة من اللاتين أيدوا الاقتراح . إلا أن الثمن الذى فرض على الجمهوريين لتأييدهم الاقتراح ١٨٧ فى ولاية تتسم بتعددية الثقافات ككاليفورنيا كان فادحًا على المدى الطويل . فبعد سنتين، حصل بوب دول على ٦ ٪ لا أكثر من أصوات اللاتين، مقارنةً بنسبة ٤٧ ٪ التى فاز بها ريجان فى سنة ١٩٨٤م .

كان السبب فى تأييد الاقتراح ١٨٧ بهذا الوضوح أنه كان غير ضرورى. وفى ١٩٩٤م، كانت كاليفورنيا تتماثل للعودة لحالتها الطبيعية، وتبين أن براون التى راهن بعضنا بماله بحمق على أنها ستصبح أول رئيسة لأمريكا، كانت مرشحة فاشلة (لم تتمكن من تحديد موقفها حتى من عقوبة الإعدام). وفى تكساس، الولاية التى تعتبر جنوبية بقدر ما هى غربية، أخذ الجمهوريون بزعامة حاكم شاب يدعى بوش يستميلون اللاتين ولم يحطوا من شأنهم.

ولعدم اقتناعهم باللعب الردىء بورقة العرق، شرع الجمهوريون فى اللعب بصورة أردأ بورقة الأخلاق. وفى التسعينيات، علا نجم المسيحيين الإيڤانجليكيين فى حزب الولاية. وفى سنة ١٩٩٤م، أدرجت مجلة Campaigns and Elections حزب كاليفورنيا الجمهورى ضمن ثمانية عشر من الولايات التى سيسود فيها اليمين المسيحى. ومن الصعب تصور ولاية يسوء فيها الأمر عن ذلك. ومن أسباب انتخاب ويلسون لكل من عضوية مجلس الشيوخ الأمريكى ولمنصب الحاكم، تأييده لخيار الإجهاض؛ وكذلك كان الأمر بالنسبة لريتشارد ريوردان الجمهورى الذى انتخب عمدة لوس أنچيليس فى سنة ١٩٩٣م. وما إن ساعدت إحدى غارات رالف ريد السرية على إسناد مسئولية المجلس التعليمى للمسيحيين المحافظين فى ڤيستا، حتى انشقت الصفوف حول تدريس نظرية الخلق كما جاءت فى الكتاب المقدس للتلاميذ. وفى سنة ١٩٩٤م صوت الناخبون باستبعاد المسيحيين الذين دخلوا خلسةً.

كان لاصطباغ الحزب بالصبغة الجنوبية فى ولاية هينة لينة عواقب وخيمة، منها ما آل إليه اثنان من نجوم الجمهوريين الشبان اللامعين، وهما دان لانجرين وچيمز روجن. كانت للانجرين جذور عميقة فى حزب كاليفورنيا (كان أبوه طبيب ريتشارد نيكسون). وكان له مستقبل واعد كعضو بمجلس النواب؛ حيث ساعد فى كتابة «العقد مع أمريكا»، وكان حينذاك منتخبًا لمنصب المحامى العام لكاليفورنيا؛ حيث نبغ فى سجن الناس وفى الدفاع عن حق امتلاك السلاح. وبفضل ذلك، مضافًا إليه معارضته للإجهاض، نجح فى انتخابات اختيار الحاكم التمهيدية فى سنة ١٩٩٨م، ولكن فى الانتخابات العامة، تمكن المرشح الديمقراطى جراى ديڤيز من تشويه صورة ابن الطبيب فى القضايا «الجنوبية» الثلاث: الإجهاض والبيئة والسلاح. وخسر لانجرين بأكثر من عشرين نقطة.

وكان چيمز روجن ذا شخصية أقوى من لانجرين. كان ابنًا غير شرعى لساقية وساق فى حانة، ورباه عدد من أقاربه فى أحياء سان فرانسيسكو القاسية قبل إعادته لأمه (وهى مثقلة حاليًا بزوج سكير وثلاثة أبناء آخرين). ثم ترك المدرسة وعمل فى سلسلة من الأعمال الغريبة، منها فتوة بإحدى دور العرض الإباحية لمدة ثلاثة أيام. وحسب مقتضيات النموذج الأمريكى الأمثل، قلب حياته رأسًا على عقب وكافح حتى أصبح عضو مجلس نواب جمهورى ناجح عن الدائرة ٢٧ على سفح جبال سان جابرييل بجنوب كاليفورنيا. وقد نتصور أن إحساسًا بالتسامح تجاه خطايا الغير لازمه نتيجة لذلك. لكنه ساير الجناح الجنوبى من الحزب فى مجلس النواب. وأدى به دوره كأحد أقطاب المجلس ممن سعوا لتقديم كلينتون للمحاكمة إلى أن صار بطلاً بين الجمهوريين على المستوى القومى. فانهمر المال وتدفق المتطوعون على حملة إعادة انتخابه فى سنة ٢٠٠٠م من كافة أرجاء البلاد. لكن هذا حوله إلى شيطان فى محيطه القريب. فاعتبر العاملون الليبراليون بشركات مثل دريم، وركس، وديزنى، إخوان وارنر، والتى كانت مقارها تقع فى دائرته، تأييده لإدانة كلينتون دليلاً على تشوشه العقلى. وأنفق بعض نجوم هولى وود من أمثال ديفيد جفن أموالاً طائلة على معارضته. وفى ليلة السابع من نوفمبر ٢٠٠٠م، سعد بيل كلينتون لدى سماعه خبر فقدان روجن مقعده البرلمانى.

رئيس بالصدفة

لم يكن هناك المزيد مما يسعد كلينتون فى تلك الليلة. وكانت هزيمة آل جور فى انتخابات ٢٠٠٠م واحدة من قصص الرعب فى أمريكا الليبرالية، لا لأنها أقل الانتخابات فرقًا فى الأصوات، وأنها انتهت بإعادة عد الأصوات فى فلوريدا ـ ويؤكد العديد من الليبراليين أنها كانت مدبرة ـ ولا لأن جور لم يفز بأغلبية الصوت الشعبى إلا لكى ينبذه المجمع الانتخابى. بل لأن جور خسر انتخابات كان ينبغى له أن يفوز بها بسهولة.

لا شك أن نزوة كلينتون أضرت بجور، ولكن كما تباهى كلينتون فى خطبة الوداع فى مؤتمر الديمقراطيين لسنة ٢٠٠٠م، شهدت فترة رئاسته أيضًا إيجاد ٢٢ مليون فرصة عمل وأطول توسع اقتصادى فى تاريخ البلاد.[٦٥] وكان جور المدافع الأمثل عن هذا الإرث. وباعتباره مؤيدًا قديمًا لـ «مجلس القيادة الديمقراطى» ساعد فى استمالة

كلينتون فى مسألة عجز الموازنة وإعانة البطالة، وهزم روس بيرو هزيمة نكراء فى مناظرة حول «اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية» . وكانت لديه قضية ـ البيئة ـ قد تجعله يخسر أصواتًا فى ولايات صناعة السيارات، لكنها كانت تضفى عليه مصداقية فى اليسار. ولكن فى فترة السنتين الأخيرتين من رئاسة كلينتون، نجح جور فى إلقاء أفضل أوراقه. ففى مسألة البيئة، انحرف نحو اليمين (تاركًا مساحة لرالف نادر ليخوض السباق كمرشح أخضر). وفيما عدا ذلك، انعطف يسارًا وقاد حملته كبطل شعبى فى مواجهة الأقوياء. وهذه المسحة الشعبية لم تكن تناسب «الأمير ألبرت». فابن السيناتور جور قضى معظم طفولته وصباه بأحد فنادق واشنطن الأنيقة يحيط به ساسة مسنون وخدم يتذللون. وكان يلهو بغواصته فى حمام سباحة مجلس الشيوخ، وجلس على حجر ريتشارد نيكسون حين كان نائب الرئيس فى ذلك الوقت يرأس مجلس الشيوخ. وكان جور يبدو دومًا كأنه يقدم آل جور آخر للناس: فإلى جانب آل الشعبى الذى يناهض الشركات الكبرى نيابة عن الأسر العاملة، كان هناك آل إنترنت وآل الرخاء الذى يعد قائلاً: «أنتم لم تروا شيئًا بعد».

ولكن حتى فى صورته الشعبية، لم يكن جور يريد العودة لليبرالية چونسون والحكومة الكبيرة. فأعلن قبل الانتخابات بأسبوعين قائلاً: «لا أريد أن أرى حقبة أخرى من التدخل الحكومى. فمن بين مرشحَين: أنا الذى أؤمن بالحكومة المحدودة ولطالما آمنت بذلك حتى قبل أن تصبح موجة فى الحزب الديمقراطى. أنا لا أؤمن بأن الحكومة لديها حل لكل مشكلة، ولا أؤمن بوجود أية خطة حكومية يمكن أن تحل محل مسئولية الآباء أو العمل الشاق للأسرة أو الابتكار الصناعى».

لو كان جور التزم هذا النهج من البداية، لواصل نزعة أيزنهاور الجمهورية لدى بيل كلينتون. ولكنه لم يفعل. فقرر عدد من الناخبين فى الولايات اليمينية أن يراهنوا على چورچ بوش الابن. لم يكن بوش مرشحًا أمثل؛ فعلى الرغم من وفرة المال ومباركة حركة المحافظين كاد يخسر الترشيح أمام چون ماكين بعد أن هزمه سيناتور أريزونا فى انتخابات نيوهمپشاير التمهيدية. إلا أن سوء استعماله للكلمات، وابتسامته المُتكلّفة ساعدت على إخفاء ماكينة سياسية شديدة الحنكة. والتزم بوش طوال حملته بنقاط خمس هى الضرائب والتعليم والأمن الاجتماعى والدفاع الصاروخى وخطة

«ميديكير» للرعاية الصحية. وبينما كان آل جور يعرف الكثير، كان بوش يبدو مستريحًا بانكماشه.

وسط كل الإعلانات المعلقة والمحامين المتنازعين، كان بوش يبدو كرئيس بالصدفة كما وصفته الإكونوميست. ولكن لم يكن هناك شيئًا بالصدفة فى فلسفته الشديدة المحافظة. ولا شك أن تلك الأيديولوچيا جاءت فى غلاف أكثر تسامحًا مما كان الأمريكيون رأوا حتى ذلك الحين. فهذا مرشح يتسم ببعض من طبيعة ريجان اللينة، يظهر «نزعة محافظة رقيقة» ويخفى موقفه من موضوع الإجهاض. وتم إجلاس بيض اليمين المسيحى المسنين المكفهرين فى المقاعد الخلفية فى مؤتمر فيلادلفيا، وقدموا صورة براقة متعددة الثقافات والأطياف. وزمجر پات بوكانن بشعار «نحن مؤتمر العالم». لكن ناخبى پيرو المستقل وجدوا أمانًا فى التصويت للجمهوريين مرة أخرى.

كان هتاف بيل كلينتون الأخير فى خطابه فى مؤتمر الديمقراطيين فى لوس أنچيليس. بدأ أعماله وآله التصوير تتابعه فى أرجاء المبنى كما لو كان نجمًا غنائيًا، وانتهى بانشودة للبلد الذى أعطى الكثير لصبى أبيض فقير «ولد لأرملة شابة فى ليلة عاصفة فى بلدة صغيرة بالجنوب». وخلفنا جلست عجوز زنجية همست قائلة «كم سأفتقد هذا الرجل يا ربى». وكانت على حق من نواح عدة. فأمريكا الليبرالية أخذت فرصتها. لعبت أفضل أوراقها ببيل كلينتون ونهاية الحَرب الباردة واقتصاد الإنترنت، ولم تحصد سوى «نزعة محافظة مخففة». والآن أصبح لأمريكا رئيس محافظ. فماذا هو فاعل؟

***